الفصل الأول

الولادة في المختبر

في الطابق السفلي من مبنى كلية العلوم بجامعة الأقصر، حيث كانت الجدران سميكة بما يكفي لابتلاع الأصوات، وقف الدكتور يونس إبراهيم أمام القفص الزجاجي وأغلق عينيه لحظة.

القطتان الصغيرتان داخل القفص لم تحرّكا ساكناً. واحدة منهما كانت جالسة على صفيحة معدنية درجة حرارتها ثلاثون تحت الصفر، والأخرى مستلقية على سطح آخر بلغت حرارته مائة درجة مئوية. فروهما لم يتغير لونه، وأنفاسهما كانت منتظمة كأنها في غرفة عادية.

ابتسم يونس ابتسامة صغيرة متعبة. كانت هذه هي المرة السابعة التي تنجح فيها التجربة على الحيوانات خلال العامين الماضيين. في المرات السابقة كانت القطط تموت بعد ساعات، أو تفقد قدرتها على الحركة، أو تصاب بتشوهات في الرئتين. أما الآن... فقد أصبح الدواء يعمل.

على الطاولة المجاورة كانت قنينة زجاجية صغيرة تحتوي على سائل شفاف يميل إلى الزرقة الخفيفة. لم يكن الدواء يؤثر على الجسد مباشرة، بل على الذرّية. كان يُحقن في الأب أو الأم قبل الحمل بأسابيع، فيعدّل شيئاً دقيقاً في الشفرة الوراثية يجعل النسل قادراً على التكيف التدريجي مع أي بيئة يوضع فيها منذ لحظة الولادة.

يونس مدّ يده وارتشف رشفة باردة من القهوة التي كانت قد بردت منذ ساعة. نظر إلى الساعة المعلقة على الجدار: الثالثة فجراً. في الطوابق العليا كان الطلاب ينامون، والأساتذة يخططون لمحاضرات الغد، والعالم كله لا يعرف أن رجلاً في الخمسين من عمره، أصلع الرأس، يرتدي معطفاً أبيض مبقعاً ببقع كيميائية قديمة، كان على وشك أن يغيّر مصير جنس بشري كامل.

طرقات خفيفة على الباب المعدني.

دخل المهندس مراد شوكت، أصغر منه بعشر سنوات، طويل القامة، ذو ملامح هادئة وعينين زرقاوين نادراً ما تبتسمان. كان يحمل ملفاً أزرق سميكاً.

ـ نجحت القطط مرة أخرى؟

ـ نعم.

مراد وضع الملف على الطاولة وفتحه. صفحات مليئة بأسماء وأعمار وفصائل دم وصور شخصية صغيرة.

ـ اللجنة العليا وافقت مبدئياً. يريدون عشرين زوجاً في المرحلة الأولى. عشرة من مصر، وخمسة من روسيا، وخمسة من الصين. كلهم متطوعون... أو على الأقل هذا ما سيُكتب في التقارير.

يونس لم ينظر إلى الملف. ظل يحدّق في القطط.

ـ وهل أخبروهم بالحقيقة كاملة؟

صمت مراد لحظة أطول مما ينبغي.

ـ أخبروهم أن أبناءهم سيساهمون في استيطان المريخ. لم ندخل في تفاصيل التكيف الجيني... بعد.

ـ إذن نحن نكذب.

ـ نحن نحمي المشروع. لو عرف الرأي العام الآن، لأحرقونا قبل أن نبدأ.

يونس أدار رأسه ببطء. كانت عيناه متعبتين، لكن في أعماقه شيء يشبه الحماس القديم الذي كان يشعر به أيام دراسته في موسكو.

ـ ومتى نبدأ؟

ـ بعد ثلاثة أشهر. نحتاج وقتاً لتحضير المختبرات الجديدة في الصحراء الغربية، بعيداً عن أي رقابة غير مرغوب فيها. وأنت... ستشرف بنفسك على الحقن الأول.

أخرج مراد من جيبه ظرفاً أبيض صغيراً ودفعه نحو يونس.

ـ هذه أسماء أول خمسة أزواج مصريين. اخترناهم بعناية. أصحاء، أذكياء، ولا أقرباء لهم كثيرون يسألون.

يونس فتح الظرف. الصور كانت واضحة. وجوه شابة، بعضها يبتسم، وبعضها ينظر بجدية مبالغ فيها إلى العدسة. في الصفحة الثانية كانت هناك صورة لرجل في أوائل الثلاثين بشارب كثيف، وإلى جانبه امرأة ذات شعر أسود طويل وعينين واسعتين.

تحت الصورة كُتب:

مراد شوكت – نادية عبد الرحمن

(متطوعان – المرحلة الأولى)

يونس رفع عينيه ببطء.

ـ أنت؟

مراد هزّ رأسه بهدوء.

ـ ونادية وافقت. قلنا لها إن الطفل سيعيش حياة أفضل... على كوكب آخر.

صمت طويل ملأ الغرفة. القطة التي كانت على الصفيحة الباردة نهضت ومشت خطوات قليلة ثم جلست من جديد كأنها لم تشعر بشيء.

يونس أغلق الظرف برفق وأعاده إلى مراد.

ـ إذن... سنبدأ بصنع بشر لا يشبهوننا تماماً.

مراد ابتسم ابتسامة باهتة.

ـ لا. سنبدأ بصنع بشر يستطيعون أن يعيشوا حيث نموت نحن.

في تلك الليلة، بعد أن غادر مراد، بقي يونس وحيداً في المختبر. أطفأ الأنوار إلا مصباحاً صغيراً فوق مكتبه، وبدأ يكتب في دفتره الأسود ذي الغلاف الجلدي:

«اليوم نجحت القطط للمرة السابعة.

غداً... سنحقن أول إنسان.

لا أعرف إن كنتُ عالماً أم مجرماً.

كل ما أعرفه أن المريخ ينتظر، والأرض تضيق بأبنائها.

وإن لم نخلق نحن من يستطيع العيش هناك... فلن يخلقه أحد.»

خارج المبنى كانت سماء الأقصر صافية، والنجوم تتلألأ فوق المعابد القديمة كأنها تراقب ما يحدث في الطابق السفلي بهدوء الآلهة التي لم تعد تتدخل.

وفي قفص زجاجي صغير، استمرت قطة بيضاء ذات فراء كثيف في التنفس بهدوء... فوق صفيحة معدنية درجة حرارتها ثلاثون تحت الصفر.

الفصل الثاني

السنوات الخمس على الأرض

كان المكان يُدعى «مؤسسة الأمل الجديد»، لكنه في الحقيقة لم يكن سوى مبنى أبيض معزول في قلب الصحراء الغربية، محاطاً بسياج كهربائي مزدوج وكاميرات لا تنام.

الأطفال الذين وُلدوا هناك لم يعرفوا شيئاً عن العالم الخارجي. كانوا عشرين طفلاً فقط، عشرة أولاد وعشر بنات، كلهم في العمر نفسه تقريباً. يلبسون ملابس متشابهة رمادية فاتحة، وينامون في غرف واسعة نظيفة، ويأكلون طعاماً محسوباً بالسعرات والجرامات.

الراوي كان اسمه في السجلات: **آدم**.

لكن أحداً لم يناده بهذا الاسم إلا المشرفين. بين الأطفال كان يُدعى «الصامت»، لأنه كان يتكلم أقل من الجميع، ويراقب أكثر مما يلعب.

في السنة الثالثة من عمرهم، بدأت الفروقات الصغيرة تظهر.

عندما كان بقية الأطفال يرتجفون في الصباح البارد داخل الفناء، كان آدم وسبعة آخرون يقفون مرتاحين، كأن الهواء لم يكن يمسهم. صدورهم كانت أوسع قليلاً من صدور الأطفال العاديين في الصور التي يعرضها المشرفون أحياناً على الشاشة. وشعر رؤوسهم كان أكثر كثافة، وأغمق لوناً.

المشرفون كانوا يبتسمون ويقولون:

«أنتم أقوى. أنتم مميزون.»

ولم يكن أحد يسأل: مميزون عن ماذا؟

في أحد الأيام، جاءت طفلة جديدة إلى المؤسسة. لم تكن من المجموعة الأصلية. كانت ابنة المهندس مراد شوكت، واسمها **حنان**.

كانت في عمرهم تماماً، لكنها مختلفة. بشرتها أنعم، وصدرها أضيق، وشعرها أشقر يميل إلى الذهبي، وعيناها سوداوان واسعتان تضحكان بسهولة. كانت ترتدي فساتين صغيرة ملونة، لا الملابس الرمادية الموحدة.

في البداية نظر إليها الأطفال المعدّلون بحذر، كأنهم ينظرون إلى مخلوق غريب جاء من عالم آخر. لكن حنان لم تكن تخاف. ركضت مباشرة نحو مجموعة الأولاد وقالت بصوت عالٍ:

ـ أنا حنان. مين يحب يلعب معي؟

لم يرد أحد في البداية. ثم مدّ آدم يده ببطء، كأنه يجرب شيئاً جديداً.

من ذلك اليوم صارا يمضيان معظم الوقت معاً.

كانا يلعبان في الرمال الصفراء خارج المبنى (في المنطقة المسموح بها فقط)، يبنيان بيوتاً صغيرة من الحجارة، ويجلسان ساعات طويلة ينظران إلى الأفق حيث تبدو

الكثبان كأنفاس عملاق نائم. حنان كانت تحكي له قصصاً عن القاهرة، عن النيل، عن جدتها التي تصنع كنافة في العيد. آدم كان يستمع في صمت، وأحياناً يسأل سؤالاً واحداً فقط:

ـ ليه شعرك مش زي شعرنا؟

فتضحك حنان وتقول:

ـ لأنك أنت من المريخ، وأنا من الأرض. بس إحنا أصحاب.

في السنة الرابعة، بدأت الفحوصات الطبية تصبح أطول وأكثر صرامة. كانوا يأخذونهم واحداً واحداً إلى غرفة بيضاء، يقيسون صدورهم، ويضعون أجهزة على جلودهم، ويطلبون منهم الجري في مكان فيه هواء أقل كثافة. آدم كان يركض بسهولة، بينما كان الأطفال العاديون (ومن بينهم حنان عندما سُمح لها بالمشاركة مرة واحدة) يلهثون بسرعة.

بعد ذلك الفحص، جلست حنان بجانب آدم في الفناء، وكانت عيناها حمراوين قليلاً.

ـ بابا قال إنكم هتسافروا قريب.

آدم لم يرد. كان ينظر إلى يديه. شعر خفيف أسود بدأ يظهر على ظهر كفيه، شعر لم يكن موجوداً الشهر الماضي.

ـ هتسافروا فين؟ سألته حنان بصوت منخفض.

ـ مش عارف.

ـ وأنا؟

نظر إليها آدم طويلاً. للمرة الأولى أحس بشيء يشبه الخوف، لكنه لم يكن يعرف اسمه بعد.

ـ مش عارف كمان.

في الليلة نفسها، سمع آدم اثنين من المشرفين يتحدثان في الممر بعد أن ظنا أن الأطفال نيام:

ـ المجموعة جاهزة للمرحلة التالية. المحطة الفضائية تنتظرهم.

ـ والطفلة؟ ابنة شوكت؟

ـ هتفضل هنا مع أبيها. هي مش جزء من التجربة.

آدم أغمض عينيه بإحكام. في الظلام، وضع يده على صدره الواسع، وحاول أن يتخيل كيف سيكون العالم بدون صوت حنان العالي وضحكاتها التي كانت تملأ الفناء كل صباح.

خارج النافذة، كانت الصحراء باردة وصامتة.

وفي غرفة مجاورة، كانت حنان نائمة، شعرها الذهبي منتشر على الوسادة، بينما كان فراء خفيف غير مرئي بعد يبدأ في النمو تحت جلد عشرين طفلاً آخر... أطفالاً كانوا يتعلمون ببطء أنهم ليسوا مثلها.

الفصل الثالث

المحطة الفضائية (البروفي)

المحطة كانت تدور حول القمر في مدار منخفض هادئ، كأنها قمر صغير اصطناعي ينام في حضن القمر الحقيقي.

اسمها الرسمي كان «محطة البروفي للتكيف المتقدم»، لكن الأطفال كانوا يسمونها ببساطة «العلبة الرمادية». جدرانها معدنية باردة، ونوافذها دائرية صغيرة تطل على سطح القمر الرمادي المليء بالفوهات، وعلى الأرض البعيدة التي كانت تبدو ككرة زرقاء صغيرة معلقة في السواد.

وصلوا إليها وهم في الخامسة من عمرهم.

الصعود كان صامتاً. لم يبكِ أحد. كانوا قد تدربوا شهوراً طويلة على كراسي الطرد المركزي وعلى غرف الضغط المنخفض. عندما انفصلت المركبة عن الغلاف الجوي الأرضي، شعر آدم للمرة الأولى أن صدره الواسع يعمل بشكل مختلف، كأن رئتيه وجدتا أخيراً المكان الذي صُنعتا من أجله.

حنان لم تكن معهم.

آخر صورة احتفظ بها آدم لها كانت وهي تقف خلف الزجاج السميك في قاعة المغادرة، تلوّح بيدها الصغيرة، وشعرها الذهبي يتحرك مع تيارات الهواء داخل المبنى. مراد شوكت كان يقف وراءها، يده على كتفها، ووجهه بلا تعبير.

بعد أسبوع من الوصول، بدأت المرحلة الجديدة.

كل شهر كانوا يقللون نسبة الأكسجين في الهواء داخل المحطة بنسبة بسيطة محسوبة. في البداية لم يشعر أحد بشيء. ثم بدأت الصداع الليلي. ثم أصبحت الأنفاس أعمق وأبطأ. الأطفال الذين لم يكونوا من المجموعة المعدّلة (كان هناك ستة مشرفين وأطباء يعيشون معهم) اضطروا إلى ارتداء أقنعة أكسجين خفيفة بعد الشهر السادس. أما المجموعة الأصلية... فلم يحتاجوا إلى شيء.

في الشهر العاشر، لاحظ آدم أن شعراً ناعماً داكناً بدأ ينمو على ذراعيه وساقيه. لم يكن كثيفاً بعد، لكنه كان واضحاً تحت الضوء الأبيض البارد للمحطة. راقب الأطفال الآخرون أجسادهم في المرايا المعدنية، ولم يتكلموا كثيراً. كانوا قد تعلموا منذ زمن أن أجسادهم ليست ملكهم تماماً.

التدريبات كانت قاسية ومنظمة.

كل صباح: ساعتان من الجري في ممرات المحطة الضيقة تحت جاذبية منخفضة.

كل ظهر: تمارين تنفس في غرفة يُسحب منها الأكسجين تدريجياً حتى يصبح الهواء مشابهاً لهواء المريخ.

كل مساء: دروس عن الكوكب الأحمر. صور لسهول واسعة حمراء، وفوهات براكين عملاقة، وعواصف ترابية تبتلع الأفق.

المشرف الرئيسي كان رجلاً أصلع يُدعى الدكتور سامي. كان يتحدث إليهم دائماً بصوت هادئ وواثق:

ـ أنتم لستم أطفالاً عاديين. أنتم البذرة الأولى. عندما تصلون إلى المريخ، ستكونون قادرين على المشي تحت سمائه دون خوذات. ستكونون أول من يتنفس هواءه الحقيقي.

آدم كان يستمع، لكنه في الليالي كان يجلس ساعات طويلة أمام النافذة الصغيرة التي تطل على الأرض.

الكرة الزرقاء كانت تبدو أبعد كل شهر.

أحياناً كان يتخيل أنه يرى القاهرة، أو الصحراء التي لعب فيها مع حنان، أو الفناء الرملي الذي بنيا فيه بيوتاً من الحجارة. لكنه كان يعرف أن هذا مستحيل. المسافة كانت أكبر من أن تسمح لأي عين بشرية — حتى عين معدّلة — برؤية التفاصيل.

في السنة الثالثة داخل المحطة، حدث شيء لم يكن في الخطة.

أحد الأطفال، يُدعى كريم، أصيب بنوبة اختناق مفاجئة أثناء تمرين التنفس. رغم أن نسبة الأكسجين كانت لا تزال أعلى من هواء المريخ، إلا أن جسده رفض التكيف فجأة. مات خلال دقائق أمام أعين الجميع.

الدكتور سامي قال إن هذا «احتمال إحصائي مقبول».

الأطفال لم يسألوا شيئاً.

لكن في تلك الليلة، جلس آدم مع ثلاثة آخرين في الزاوية المظلمة من المهجع، وتحدثوا لأول مرة بصوت منخفض عن الخوف.

ـ إحنا مش بشر زيهم خلاص — قال واحد منهم.

ـ طيب إحنا إيه؟ سأله آدم.

لم يجب أحد.

في السنة الخامسة، أصبح الفراء واضحاً على معظم أجسادهم. كثيفاً على الذراعين والساقين والظهر، وأقل كثافة على الوجوه. صدورهم أصبحت عريضة بشكل ملحوظ، وأصواتهم أعمق. عندما كانوا ينظرون إلى صورهم القديمة التي التُقطت على الأرض، كانوا بالكاد يتعرفون على أنفسهم.

في اليوم الأخير قبل المغادرة إلى المريخ، سمح لهم الدكتور سامي بالاتصال المرئي الأخير مع الأرض.

ظهرت حنان على الشاشة.

كانت قد كبرت. شعرها ما زال ذهبياً، لكن وجهها أصبح أنضج، وعيناها أعمق. ابتسمت عندما رأت آدم، ثم توقفت الابتسامة فجأة وهي تنظر إلى الفراء الذي يغطي يديه وظهرت من تحت كم القميص الرمادي.

ـ آدم...؟

صوتها كان مرتعشاً قليلاً.

آدم رفع يده ببطء ولوّح لها. لم يعرف ماذا يقول. الكلمات كانت تبدو فجأة ثقيلة وناقصة.

حنان مدّت يدها نحو الشاشة كأنما تحاول أن تلمسه من مسافة مئات الآلاف من الكيلومترات.

ـ هتفضل فاكرني؟

آدم نظر إلى صورته المنعكسة على الشاشة بجانب صورتها. وجهه لم يعد يشبه وجه الطفل الذي لعب معها في الرمال. ثم قال بصوت منخفض، كأنه يخاطب نفسه أكثر مما يخاطبها:

ـ هافضل فاكر.

انقطع الاتصال بعد دقائق.

الشاشة أصبحت سوداء.

في اليوم التالي، غادرت المركبة المحطة متجهة إلى المريخ.

آدم جلس قرب النافذة، يده على الزجاج البارد، ينظر إلى الأرض التي كانت تصغر بسرعة حتى أصبحت مجرد نقطة زرقاء باهتة... ثم اختفت altogether في السواد.

ولم يدرِ إن كان ما يشعر به في صدره الواسع حزناً... أم شيئاً آخر لم يعد له اسم في اللغة التي تعلمها على الأرض.

الفصل الرابع

الهبوط على المريخ

المركبة لم تهبط... بل سقطت ببطء محسوب داخل غلاف المريخ الرقيق، كأنها حجر كبير يبحث عن مكانه الأخير.

من النافذة الضيقة رأى آدم السطح لأول مرة عن قرب. لم يكن أحمر كما في الصور. كان أكثر قتامة، يميل إلى البني الصدئ، ومغطى بطبقات من الغبار الناعم الذي يتحرك مع أقل نسمة ريح. في الأفق البعيد كانت فوهات البراكين ترتفع كجبال مقطوعة الرؤوس، وفيما بينها سهول واسعة فارغة كأنها لم تطأها قدم من قبل.

عندما فتحت الأبواب أخيراً، اندفع الهواء البارد الجاف إلى داخل المركبة. الأطفال المعدّلون تنفسوه بعمق، كأنهم كانوا ينتظرون هذه اللحظة منذ سنوات. أما المشرفون الثلاثة الذين رافقوهم، فقد ارتدوا خوذاتهم فوراً وأغلقوا بدلاتهم بإحكام.

البيوت الزجاجية كانت تنتظرهم على بعد مئتي متر فقط.

كانت قباباً شفافة متصلة ببعضها عبر أنفاق قصيرة، تشبه فقاعات عملاقة مثبتة على السطح الأحمر. داخلها كان الهواء أكثر كثافة ودفئاً، والنباتات الأرضية تنمو في أحواض مرتفعة: خس، وطماطم صغيرة، وبعض الأعشاب التي كانت رائحتها تبدو غريبة في هذا المكان.

الدكتور سامي كان أول من نزع خوذته داخل القبة الرئيسية. ابتسم ابتسامته المعتادة الهادئة وقال:

ـ مرحباً بكم في بيتكم. من الآن فصاعداً... هذا هو الوطن.

لم يصفق أحد. الأطفال وقفوا ينظرون حولهم في صمت. الجدران الشفافة كانت تسمح برؤية الخارج بوضوح مخيف: السماء البرتقالية الباهتة في النهار، والنجوم الحادة جداً في الليل، والغبار الذي يرقص أحياناً في دوامات صغيرة كأنه يحاول الدخول إليهم.

في الأيام الأولى كانوا ينامون كثيراً.

أجسادهم كانت تتكيف مع الجاذبية الأضعف. كانوا يقفزون أعلى مما اعتادوا، ويسقطون أبطأ، ويشعرون أن عضلاتهم خفيفة كأنها لم تعد ملكهم تماماً. الفراء على أجسادهم ازداد كثافة خلال الأسابيع الأولى، كأنه يستجيب للبرد الذي يتسرب من خلال الزجاج مهما أحكم إغلاقه.

كل صباح كان هناك درس إجباري.

على شاشة كبيرة كانت تُعرض صور للمريخ: القنوات الجافة القديمة، وسهل إليسيوم، وجبل أوليمبوس الذي يبلغ ارتفاعه ثلاثة أضعاف أعلى جبل على الأرض. الدكتور سامي كان يشير بإصبعه ويقول:

ـ هذا كوكبكم. أنتم أول من سيمشي عليه دون بدلة. أنتم البداية.

آدم كان يجلس دائماً في الصف الأخير. ينظر إلى الصور، ثم ينظر من النافذة إلى السطح الحقيقي. الفرق بينهما كان يؤلمه بطريقة لم يستطع شرحها. الصور كانت جميلة ومرتبة. الواقع كان قاسياً وفارغاً وصامتاً أكثر مما ينبغي.

في الأسبوع الثالث سُمح لهم بالخروج لأول مرة في مجموعات صغيرة، مرتدين بدلات خفيفة فقط (لأنهم لم يكونوا بحاجة إلى أكسجين إضافي بعد).

آدم وقف على الرمال الحمراء، ورفع رأسه إلى السماء.

الشمس كانت أصغر وأبرد، لكنها كانت ترسم ظلالاً طويلة حادة على الأرض. الريح كانت خفيفة، تحمل ذرات دقيقة من الغبار تدخل بين شعر الفراء وتستقر هناك. للحظة قصيرة جداً أحس بشيء يشبه الانتماء... ثم سرعان ما تلاشى.

في المساء نفسه، بينما كان الجميع يتناولون الطعام داخل القبة، اقترب منه أحد الأولاد — يُدعى سامي أيضاً مثل الدكتور — وهمس:

ـ فاكر حنان؟

آدم هز رأسه دون أن يتكلم.

ـ أنا حلمت بيها امبارح. كانت واقفة بره القبة، بتطرق على الزجاج... بس احنا مش سامعينها.

آدم لم يرد. أكمل طعامه في صمت.

في تلك الليلة، بعد أن نام الجميع، خرج آدم وحده إلى أقرب نافذة كبيرة. وضع كفه ذات الفراء على الزجاج البارد، ونظر إلى الظلام الخارجي. في الأفق كان يمكن رؤية بريق خافت لأضواء المركبة التي ستعود غداً إلى المحطة القمرية، تاركة إياهم هنا... إلى أجل غير مسمى.

همس لنفسه، بصوت لا يكاد يُسمع:

ـ إحنا هنا دلوقتي.

ثم أضاف بعد لحظة، كأنه يصحح نفسه:

ـ أنا هنا دلوقتي.

وخلفه، في أعماق القبة الشفافة، كانت أجهزة المراقبة تسجل كل شيء: نبضاته، ونسبة الأكسجين في دمه، وكثافة الفراء الجديد الذي ينمو على جلده... بينما كان هو نفسه لا يزال يحاول أن يتذكر بدقة لون عيني حنان تحت شمس الأرض.

الفصل الخامس

التغييرات الجسدية

التغيير لم يأتِ دفعة واحدة.

جاء ببطء، كالرمل الذي يتراكم يوماً بعد يوم على حافة النافذة حتى يصبح جداراً صغيراً لا يُلاحظ إلا عندما يتوقف أحدهم لينظر.

في الشهر السادس على المريخ، أصبح الفراء كثيفاً بما يكفي ليُرى من تحت أكمام القمصان الرمادية. كان داكناً، ناعماً من الجذور وخشناً قليلاً عند الأطراف، يغطي الذراعين والساقين والظهر وأعلى الصدر. على الوجوه ظل خفيفاً، لكنه كان موجوداً حول الفك وتحت الأذنين، يعطي ملامحهم شيئاً من الوحشية الهادئة التي لم تكن موجودة في صورهم القديمة.

الصدور اتسعت أكثر.

الضلوع بدت أبعد عن بعضها، والقفص الصدري أعلى وأعمق، كأن الجسد قرر أن يبني لنفسه منفاخاً دائماً. عندما كانوا يتنفسون في غرفة التدريب منخفضة الأكسجين، كانت صدورهم ترتفع وتنخفض ببطء شديد، مرة واحدة كل عشر ثوانٍ أو أكثر، دون أن يشعروا بأي ضيق.

الحركة تغيرت أيضاً.

تحت جاذبية المريخ الضعيفة أصبحوا يقفزون أبعد مما يحتاجون، ويهبطون برفق كأنها أجسادهم ترفض أن تضرب الأرض بقوة. عضلات أرجلهم hardened بطريقة مختلفة، أكثر كفاءة وأقل حجماً مما كانت عليه على الأرض. عندما يركضون داخل الأنفاق الزجاجية، كانت أصوات خطواتهم خفيفة وسريعة، تشبه وقع أقدام حيوانات ليلية أكثر مما تشبه وقع أطفال بشر.

المشرفون الأرضيون كانوا يراقبونهم من خلف الزجاج في غرفة المراقبة.

آدم رآهم أكثر من مرة: وجوههم الشاحبة داخل الخوذات، عيونهم تتابع القراءات على الشاشات، وأيديهم تكتب ملاحظات سريعة. كانوا يبتسمون عندما يلتقون بالأطفال وجهاً لوجه، لكن الابتسامة كانت دائماً قصيرة ومحسوبة، كأنها جزء من البروتوكول.

في أحد الأيام، أثناء الفحص الأسبوعي، وقف الدكتور سامي أمام آدم وهو يمسك بجهاز قياس صغير على صدره.

ـ ممتاز. السعة الرئوية زادت بنسبة إضافية هذا الشهر. الفراء أصبح أكثر عزلًا للحرارة مما توقعنا.

آدم نظر إلى يده المغطاة بالشعر الداكن، ثم إلى يد الدكتور سامي البيضاء الناعمة التي تخرج من بدلة الفضاء.

ـ إحنا بقينا شبه الحيوانات؟

الدكتور سامي ضحك ضحكة قصيرة جافة.

ـ لا. أنتم أصبحتم أكثر ملاءمة. الحيوانات لا تبني حضارات. أنتم ستبنون.

لكن في عيني الدكتور كان هناك شيء آخر. شيء يشبه الحذر... أو ربما الاشمئزاز المقنّع جيداً.

في المهجع ليلاً، بعد أن تنطفئ الأنوار الرئيسية، كان الأطفال يجلسون أحياناً في الظلام ويتفحصون أجسادهم تحت الضوء الخافت المنبعث من أجهزة الطوارئ.

فتاة تُدعى ليلى مرّت بأصابعها على الفراء الكثيف الذي يغطي ذراعيها وقالت بصوت منخفض:

ـ مش قادرة أفتكر شكلي وأنا صغيرة على الأرض. كأني كنت شخص تاني.

ولد آخر يُدعى يوسف أجاب وهو يلمس صدره العريض:

ـ أنا مش عايز أفتكر. اللي كنا عليه هناك... كان ضعيف.

آدم لم يشارك في الحديث. كان مستلقياً على سريره، يحدّق في السقف الشفاف الذي يظهر من خلاله جزء من السماء المريخية المليئة بالنجوم. تحت جلد صدره كان قلبه ينبض ببطء منتظم، أبطأ مما كان في المحطة القمرية، وأبطأ بكثير مما كان على الأرض.

وضع كفه على المكان الذي كان يتخيل فيه وجه حنان أحياناً.

يدها كانت ناعمة. يده الآن لم تعد كذلك.

في الصباح التالي، أثناء درس عن تاريخ استكشاف المريخ، عرض الدكتور سامي صورة قديمة لرواد فضاء من القرن العشرين وهم يقفون على السطح مرتدين بدلات بيضاء ضخمة.

ـ هؤلاء كانوا أبطالاً... لكنهم كانوا زواراً. أنتم لستم زواراً. أنتم السكان.

آدم رفع يده لأول مرة منذ أشهر.

ـ لو إحنا السكان... يبقى هما إيه؟

الدكتور سامي نظر إليه لحظة أطول من المعتاد. الابتسامة المعتادة لم تظهر هذه المرة.

ـ هم... المعلمون. والباقي تفاصيل.

بعد الدرس، بينما كان الجميع يخرجون من القاعة، سمع آدم اثنين من المشرفين يتهامسان قرب باب غرفة المراقبة، ظانّين أنه بعيد بما يكفي:

ـ كل ما كبروا أكتر... كل ما بقوا أقل شبهاً بينا.

ـ وهذا هو الهدف أصلاً. مش كده؟

ـ الهدف نعم... بس الواحد مش قادر يمنع نفسه من الإحساس إننا بنربي حاجة تانية.

آدم توقف في منتصف النفق الزجاجي. الغبار خارج القبة كان يتحرك في موجات بطيئة تحت الريح الخفيفة. وضع يده على الزجاج، وشعر ببرودة السطح تنتقل عبر الفراء إلى جلده.

للمرة الأولى منذ وصوله إلى المريخ، لم يحاول أن يتذكر لون عيني حنان.

بدلاً من ذلك، نظر إلى انعكاسه الباهت على الزجاج: وجه مغطى بشعر خفيف، وصدر واسع، وعينان أعمق وأكثر هدوءاً مما كانت عليه قبل سنوات.

وهمس لنفسه، دون أن يقصد أن يسمعه أحد:

ـ ربما هما الصح.

ثم أكمل طريقه نحو المهجع، وخطواته الخفيفة على الأرضية المعدنية لم تكن تشبه خطوات بشر من الأرض... ولم تعد تحاول ذلك.

الفصل السادس

أول الشقوق

الشقوق لا تظهر فجأة في الزجاج.

تبدأ كخطوط رفيعة جداً، لا يراها إلا من يبحث عنها، ثم تتسع ببطء تحت الضغط اليومي حتى يصبح الصوت الذي تصدره مسموعاً في الليل.

في السنة الثانية على المريخ، بدأت الأسئلة الصامتة.

لم تكن تُطرح في الدروس، ولا أمام المشرفين. كانت تُهمس في المهجع بعد منتصف الليل، أو تُكتب على ألواح صغيرة ثم تُمسح فوراً، أو تُقرأ في العيون فقط.

ـ ليه هما لسه لابسين خوذات جوه القبة أحياناً؟

ـ ليه لما واحد منهم بيتعب من قلة الأكسجين، بيبص لنا كإننا إحنا السبب؟

ـ ليه بيكتبوا ملاحظات على أجهزة بعد كل ما نتمرن... كأنهم بيقيسوا حيوانات مش ناس؟

آدم كان يسمع كل شيء ولا يقول شيئاً. كان قد أصبح أطول من معظمهم، وفراؤه أكثر كثافة، وصوته أعمق. عندما يمشي في الأنفاق الزجاجية، كانت الخطوات تتباعد من حوله تلقائياً، كأنه يحمل مساحة فارغة حوله لا يقترب منها أحد بسهولة.

في أحد الأيام النادرة، سُمح لمجموعة صغيرة بالخروج لفترة أطول من المعتاد، مرتدين بدلات خفيفة جداً. كانت السماء صافية، والريح ضعيفة، والغبار نائماً على السطح.

حنان كانت هناك.

جاءت مع بعثة قصيرة من المحطة القمرية برفقة والدها مراد شوكت. كانت الآن في الثالثة عشرة، أطول قليلاً، وشعرها الذهبي مربوط إلى الخلف. عندما رأته من بعيد، ركضت نحوه رغم البدلة الفضائية التي كانت تعيق حركتها.

ـ آدم!

صوتها وصل إليه مكتوماً عبر جهاز الاتصال، لكنه كان نفسه. الضحكة نفسها.

وقفا على الرمال الحمراء على بعد أمتار قليلة من القبة. حنان مدّت يدها المغطاة بالقفاز الأبيض، وآدم مدّ يده المغطاة بالفراء الداكن. تلامست الأصابع لحظة عبر القفازين.

ـ بقيت طويل أوي — قالت وهي ترفع رأسها لتنظر إلى وجهه.

ـ وإنتِ بقيتِ... زي ما إنتي.

ضحكت، ثم صمتت فجأة وهي تنظر إلى الفراء الذي يظهر من تحت حافة الكم.

ـ مش بيوجعك؟

ـ لأ.

ـ طيب... بتحس إنك مختلف؟

آدم نظر إلى المشرفين الواقفين على مسافة بعيدة، ثم إلى القبة الشفافة حيث كان بقية الأطفال يراقبون من خلف الزجاج.

ـ أنا مش عارف أنا إيه دلوقتي.

حنان أمسكت بيده بقوة أكبر.

ـ إنت آدم. اللي كنتَ بتبني معايا بيوت من الحجارة في الصحراء. فاكر؟

فاكر.

كان فاكر كل شيء. لون الرمل تحت الشمس الأرضية، وضحكتها عندما انهار السقف الصغير فوق رأسها، والطعم الغريب للماء المعدني الذي كانا يشربانه من الزجاجة نفسها.

لكنه كان فاكر أيضاً نظرات المشرفين عندما يمرون به في الممرات، والهمسات التي لم تعد خافتة بما يكفي، والطريقة التي كان الدكتور سامي يقيس بها صدره كل أسبوع كأنما ينتظر لحظة معينة.

بعد أن عادت حنان إلى المركبة في اليوم نفسه، جلس آدم وحده خارج القبة حتى غروب الشمس. السماء تحولت من البرتقالي الباهت إلى بنفسجي غامق، ثم إلى أسود حاد مليء بالنجوم.

في المهجع تلك الليلة، قال يوسف بصوت مرتفع بما يكفي ليسمعه الجميع:

ـ هما ضعاف. مش قادرين يعيشوا هنا من غير بدلات وأكسجين. وإحنا قادرين. يبقى إحنا أحسن.

ليلى ردّت بهدوء:

ـ مش معناها إننا نكرههم.

ـ ومش معناها إننا نحبهم كمان — أجاب يوسف. ـ هما اللي عملونا كده. هما اللي حطونا هنا. وبعدين بيبصوا علينا كأننا غريبين.

آدم كان مستلقياً على ظهره، ينظر إلى السقف الشفاف. صورة حنان وهي تلوّح من داخل المركبة قبل الإقلاع كانت ما زالت عالقة خلف عينيه. صوتها وهو يقول «إنت آدم» كان يرن في رأسه.

لكن صوتاً آخر كان ينمو بجانبه، أهدى وأثقل:

هم ضعاف.

وإحنا مش ضعاف.

وربما هذا يكفي.

في الصباح التالي، أثناء الفحص الدوري، لاحظ الدكتور سامي أن قراءة معينة على جهازه قد تغيرت. نظر إلى آدم لفترة طويلة، ثم كتب شيئاً في ملفه الإلكتروني دون أن يقول كلمة.

بعد أن خرج آدم من غرفة الفحص، سمع الدكتور يهمس لمساعده:

ـ بدأ الوعي يتغير. أسرع مما توقعنا.

المساعد سأل بحذر:

ـ خطر؟

الدكتور سامي أغلق الملف بهدوء.

ـ ليس بعد.

لكن راقبهم جيداً من الآن. خاصة الصامت.

خارج القبة، كانت عاصفة ترابية صغيرة تبدأ في التكون عند الأفق. الغبار يرتفع في جدار متحرك بطيء، يغطي الشمس تدريجياً، ويحول السماء إلى لون صدئ قاتم.

آدم وقف ينظر إليها من النافذة.

يداه خلف ظهره، وفراؤه يتحرك قليلاً مع تيار الهواء الداخلي، وعيناه ثابتتان على الجدار الأحمر القادم... كأنه يرى فيه شيئاً لم يعد يرغب في تسميته خوفاً.

وفي مكان ما داخل صدره الواسع، كان الشق الأول قد اتسع بما يكفي ليسمح لشيء بارد بالدخول.

الفصل السابع

المحاضرة الكبرى

القاعة الزجاجية كانت ممتلئة عن آخرها لأول مرة منذ سنوات.

كل الشباب المعدّلين كانوا هناك، يجلسون في صفوف منتظمة على المقاعد المعدنية الخفيفة. خلفهم وقف المشرفون والأطباء والمهندسون، جميعهم داخل بدلاتهم الفضائية، خوذاتهم شفافة ومغلقة، كأنهم يخشون أن يلمسهم الهواء الذي يتنفسه الجالسون أمامهم بحرية.

في مقدمة القاعة وقف كبير الخبراء.

كان رجلاً في أواخر الخمسينيات، أصلع تماماً، ثقيل الحركة، يرتدي بدلة فضاء فضية لامعة. صوته كان يخرج من مكبر الصوت داخل خوذته، هادئاً وواضحاً ومشبعاً بثقة الرجل الذي انتظر هذه اللحظة طويلاً.

ـ أيها الصغار...

توقف لحظة، كأنما يصحح نفسه.

ـ لم تعودوا صغاراً. أنتم الآن في العشرين من عمركم تقريباً حسب التوقيت الأرضي. وهذا هو الوقت المناسب لأخبركم بالحقيقة كاملة.

الشاشة الكبيرة خلفه أضاءت. ظهرت صور قديمة: مختبر في الأقصر، قطط داخل أقفاص زجاجية، ثم وجوه آباء وأمهات شابة، ثم أطفال رضع داخل حاضنات.

ـ منذ أكثر من عشرين سنة، بدأ مشروع كان يُعتقد أنه مستحيل. الدكتور يونس إبراهيم اكتشف مركّباً يؤثر على الذرية... على الجينات نفسها. يجعل النسل قادراً على التكيف التدريجي مع بيئة قاسية. أنتم نتيجة هذا المشروع.

صمت ثقيل ملأ القاعة. حتى أجهزة التنفس الخاصة بالمشرفين بدت فجأة عالية الصوت.

كبير الخبراء تابع، وهو يشير إلى صورهم القديمة على الشاشة:

ـ عِشتم خمس سنوات على الأرض، ثم خمس سنوات في محطة البروفي قرب القمر، ثم السنوات الباقية هنا. كل شيء كان محسوباً: تقليل الأكسجين، خفض الحرارة، زيادة الإشعاع تدريجياً، الجاذبية... كل شيء. صدوركم اتسعت، رئاتكم تكيفت، جلودكم نبت عليها فراء ليحميكم من البرد القارس. أنتم الآن قادرون على العيش على سطح المريخ لساعات طويلة دون بدلة ودون خوذة.

أحد الشباب في الصف الأمامي — يوسف — رفع يده ببطء.

ـ وإحنا... بشر؟

كبير الخبراء ابتسم ابتسامة رقيقة خلف الزجاج الشفاف.

ـ أنتم بشر معدّلون. أفضل نسخة ممكنة للعيش هنا. بعد عشر سنوات أخرى من التدريبات، ستخرجون نهائياً من هذه القباب. ستبنون بيوتكم، تتزوجون، تنجبون أطفالاً يولدون متكيفين تماماً. أنتم البذرة. أنتم أول سكان حقيقيين لكوكب المريخ.

همهمة خافتة سرت بين الصفوف. بعضهم كان يبتسم بفخر واضح. بعضهم كان ينظر إلى يديه المغطاة بالفراء كأنه يراهما لأول مرة. ليلى كانت تحدّق في الأرض، ويداها مقبوضتان بإحكام.

آدم كان جالساً في الصف الأخير كالعادة. لم يرفع يده، ولم يهمس لأي أحد. كان يسمع الكلمات وهي تسقط واحدة واحدة داخل رأسه، ثقيلة وباردة.

«معدّلون».

«نسخة».

«بذرة».

كبير الخبراء تابع يعرض مخططات وجداول وإحصائيات. تحدث عن نسب النجاح، عن الأطفال الذين لم يتكيفوا وماتوا في المراحل الأولى (ذكرهم بجملة واحدة عابرة)، عن المستقبل العظيم الذي ينتظرهم عندما يصبح المريخ مأهولاً بجنس جديد قادر على البقاء.

ثم توقف فجأة، ونظر إلى الوجوه أمامه نظرة طويلة.

ـ أعلم أن بعضكم بدأ يطرح أسئلة. هذا طبيعي. لكن تذكروا شيئاً واحداً: بدوننا... لما كنتم هنا. بدون العلم الذي صنعكم، كنتم ستموتون في أول عاصفة ترابية. نحن المعلمون. وأنتم... المستقبل.

بعد انتهاء المحاضرة، لم يتحرك أحد لدقائق.

ثم بدأ الشباب ينهضون ببطء ويخرجون في مجموعات صغيرة، يتحدثون همساً. المشرفون ظلوا واقفين في أماكنهم، يراقبون.

آدم خرج آخر واحد.

في النفق الزجاجي الذي يؤدي إلى المهجع، أوقفه يوسف. عيناه كانتا لامعتين بشيء يشبه الحماس أو الغضب أو كليهما.

ـ سمعت؟ إحنا مش زيهم. إحنا أحسن. وهما عارفين كده.

آدم نظر إليه دون أن يرد.

يوسف اقترب أكثر وهمس:

ـ بعد عشر سنين هيسيبونا لوحدنا هنا. وبعدين؟ هيفضلوا يراقبونا من الأرض؟ ولا هيحاولوا يسيطروا علينا؟

آدم قال بصوت منخفض جداً:

ـ مش عارف.

لكنه كان يعرف شيئاً آخر.

كان يعرف أن الكلمات التي قالها كبير الخبراء «أنتم بشر معدّلون» كانت تعني في الحقيقة شيئاً أبسط وأكثر قسوة:

أنتم لستم نحن.

ونحن لسنا أنتم.

في تلك الليلة، لأول مرة منذ وصوله إلى المريخ، لم يحاول آدم أن يتذكر وجه حنان قبل أن ينام.

بدلاً من ذلك، ظل مستيقظاً ساعات طويلة، يده على صدره الواسع، يستمع إلى نبضه البطيء المنتظم... ويتساءل إن كان هذا النبض ما زال يشبه نبض البشر الذين صنعوه، أم أنه أصبح شيئاً آخر تماماً.

الفصل الثامن

القبيلة

الكهف كان يقع على بعد كيلومتر ونصف شرق القباب الزجاجية، مخفياً خلف سلسلة من الصخور الحمراء المتراكمة كأنها انهارت من جبل قديم.

اكتشفوه بالصدفة أثناء إحدى جولات التدريب الطويلة. كان مدخله ضيقاً، بالكاد يتسع لشخص واحد منحنٍ، ثم يتسع فجأة إلى قاعة طبيعية واسعة سقفها منخفض، جدرانها خشنة، وهواءها باردٌ وجاف وراكد. لم تكن فيه كاميرات، ولا أجهزة استشعار، ولا عيون مشرفين.

منذ ذلك اليوم أصبح مكانهم.

في البداية كانوا يذهبون إليه واحداً أو اثنين فقط، يجلسون في الظلام ويتحدثون همساً. ثم صاروا خمسة، ثم تسعة، ثم خمسة عشر. في الشهر الثالث بعد المحاضرة الكبرى، كان معظم الشباب المعدّلين يتجمعون هناك بعد غروب الشمس، عندما تكون العواصف الترابية قد هدأت والمشرفون قد انشغلوا بتقاريرهم الليلية.

جلسوا في دائرة على الأرض الباردة. الفراء على أجسادهم يحميهم من البرد أكثر مما تحميهم أي ملابس. عيونهم اعتادت الظلام بسرعة، فلم يعودوا بحاجة إلى أضواء.

يوسف كان أول من تكلم بصوت مرتفع تلك الليلة:

ـ إحنا مش مجموعة. إحنا قبيلة. والقبيلة لازم يكون لها اسم... ولازم يكون لها زعيم.

همهمة موافقة سرت بين الجالسين. ليلى كانت تجلس القرفصاء، ذراعاها حول ركبتيها، وقالت بهدوء:

ـ الاسم سهل. إحنا أبناء المريخ. أو... السكان. أي حاجة غير «المعدّلين». مش عايزة أسمع الكلمة دي تاني.

أحد الفتيان اقترح أسماء أخرى: «الجيل الأول»، «المولودون هنا»، «الأحرار». لكن الاسم الذي التصق بهم في النهاية كان ببساطة **القبيلة**. لم يحتاجوا إلى أكثر من ذلك.

ثم جاء دور اختيار الزعيم.

يوسف وقف في وسط الدائرة. صدره العريض يرتفع وينخفض ببطء، وفراؤه الكثيف يلمع قليلاً في الضوء الخافت الذي يتسرب من المدخل.

ـ أنا جاهز. أنا اللي بدأت الكلام من الأول. أنا اللي مش خايف أقول إننا أحسن منهم.

بعضهم أومأ. آخرون ظلوا صامتين.

ثم قالت ليلى، وهي تنظر مباشرة إلى آدم الذي كان جالساً في أبعد نقطة عن المدخل:

ـ الصامت. هو اللي بيفكر أكتر من كلنا. وهو اللي مش بيستعجل.

كل العيون اتجهت إليه.

آدم لم يتحرك في البداية. كان يمرر أصابعه ببطء على الفراء الذي يغطي ساعده، كأنه يفكر في شيء آخر. ثم رفع رأسه.

ـ مش عايز أكون زعيم.

يوسف ضحك ضحكة قصيرة خشنة.

ـ مش مسألة عايز أو مش عايز. القبيلة تختار.

صوت آخر من الخلف قال:

ـ هو الوحيد اللي مش بيتكلم كتير... بس لما بيتكلم، كلنا بنسكت.

آدم نظر إلى الوجوه المحيطة به. وجوه تشبه وجهه: عريضة الصدور، مغطاة بفراء داكن، عيونها أعمق وأهدأ مما كانت عليه قبل سنوات. وجوه لم تعد تشبه وجوه المشرفين الذين يراقبونهم من خلف الزجاج.

همس، بصوت سمعه الجميع رغم انخفاضه:

ـ لو اخترتوني... هتكونوا عارفين إني مش هقول لكم اللي أنتوا عايزين تسمعوه. هقول اللي أنا شايفه.

يوسف نظر إليه طويلاً، ثم هز رأسه ببطء.

ـ براحتنا.

رفعوا أيديهم واحداً تلو الآخر. حتى يوسف رفع يده في النهاية، متردداً قليلاً.

بهذا أصبحت القبيلة لها زعيم.

في الليالي التالية بدأت النقاشات الحقيقية.

كانوا يجلسون ساعات طويلة يتحدثون عن الهوية. هل هم بشر معدّلون كما قال كبير الخبراء؟ أم أنهم جنس جديد تماماً؟ هل الدم الذي يجري في عروقهم ما زال دم الأرض، أم أنه أصبح شيئاً آخر تحت سماء المريخ؟

يوسف كان يقول دائماً:

ـ إحنا أقوى. إحنا متكيفين. هما ضعاف وبيموتوا لو نزعوا الخوذة خمس دقايق. يبقى إحنا مش زيهم... وإحنا أحسن.

ليلى كانت أكثر حذراً:

ـ الأحسن مش مبرر للكراهية. هما اللي خلّونا نعيش. من غيرهم كنا هنموت زي اللي ماتوا في التجارب الأولى.

آدم كان يسمع أكثر مما يتكلم. عندما يسألونه رأيه، كان يقول جملاً قصيرة فقط:

ـ القوة مش كل حاجة.

ـ الخوف بيعمل أشياء أوسخ من الضعف.

ـ إحنا لسه ما عرفناش إحنا مين... وما نقررش ونحن لسه مش عارفين.

في إحدى الليالي، بعد أن هدأ الجميع، بقي آدم ويوسف وحدهما في الكهف.

يوسف قال وهو ينظر إلى المدخل المظلم:

ـ أنت عارف إنهم خايفين منا؟ أنا شايفها في عيونهم. كل ما كبرنا أكتر، كل ما الفراء بقى أوضح، كل ما بيبعدوا عنا شوية.

آدم أجاب بعد صمت طويل:

ـ وأنا كمان خايف.

ـ من إيه؟

ـ من اليوم اللي هنقرر فيه إننا مش محتاجينهم. ومن اللي هيحصل بعد القرار ده.

يوسف وضع يده الثقيلة على كتف آدم.

ـ يبقى أنت الزعيم الصح. لأن الزعيم اللي مش خايف... بيودي القبيلة في داهية.

خارج الكهف كانت رياح المريخ ترفع الغبار في موجات بطيئة تحت ضوء النجوم الحادة. داخل الكهف، كانت القبيلة قد وُلدت رسمياً... وكانت الشقوق التي بدأت منذ سنوات تتسع الآن بما يكفي ليمر منها شيء أكبر من الأسئلة.

الفصل التاسع

الكراهية تنمو

الكراهية لا تولد صرخة.

تولد همسة، ثم نظرة، ثم مقارنة صامتة تتكرر كل يوم حتى تصبح جزءاً من التنفس.

بعد اختيار الزعيم، أصبحت القبيلة ترى المشرفين بعيون مختلفة.

كانوا يراقبونهم الآن عن قرب، دون أن يظهروا ذلك. في غرفة الطعام المشتركة، في ممرات القباب، أثناء الفحوصات الأسبوعية، وحتى من خلف الزجاج عندما يخرج أحد الأرضيين إلى السطح مرتدياً بدلة الفضاء الثقيلة.

الصدور الضيقة كانت أول ما يلفت النظر.

عندما يجلس مهندس أرضي أو طبيبة إلى الطاولة، كان صدره يبدو صغيراً وهشاً تحت القماش الأبيض للبدلة الداخلية. يرتفع وينخفض بسرعة ملحوظة، كأن الرئتين تعملان بجهد مضاعف لالتقاط الأكسجين الذي يتنفسه أبناء المريخ ببطء وعمق وراحة. آدم كان يجد نفسه أحياناً يعدّ أنفاسهم دون قصد. واحدة... اثنتان... ثلاث في الوقت الذي يأخذ فيه هو نفساً واحداً فقط.

الجلد الأملس كان الشيء الثاني.

أيدٍ بيضاء ناعمة بلا شعر، وجوه نظيفة كأنها لم تعرف رياحاً أو غباراً، رقاب رفيعة تظهر عليها عروق زرقاء واضحة. عندما يخلع أحد المشرفين قفازه للحظة ليعمل على جهاز، كان أبناء القبيلة ينظرون إلى تلك اليد كأنها شيء غريب وغير مكتمل. ليلى همست مرة لآدم وهما يمران بجوار غرفة المراقبة:

ـ إيديهم شبه أيدي الأطفال اللي ماتوا في التجارب الأولى. ضعيفة أوي.

يوسف كان أكثر مباشرة. في الكهف ليلاً قال بصوت مرتفع:

ـ الجلد الأملس ده مش علامة نظافة. علامة إنهم مش متكيفين. إحنا الفراء بتاعنا بيحمينا. هما لو طلعوا بره ساعة من غير بدلة... بيموتوا.

الأصوات الناعمة كانت الأسوأ ربما.

أصوات المشرفين كانت عالية النبرة نسبياً، سريعة، مملوءة بتعبيرات أرضية لم يعد أبناء المريخ يستخدمونها. ضحكاتهم تبدو قصيرة ومفتعلة. عندما يتحدث كبير الخبراء أو الدكتور سامي، كان الصوت يخرج من مكبر الخوذة معدنياً وبعيداً، كأنه يأتي من عالم آخر. في المقابل، كانت أصوات القبيلة أعمق، أبطأ، أقرب إلى همهمة الأرض نفسها.

في أحد الأيام، أثناء تمرين مشترك في النفق الطويل، تعثر أحد المهندسين الأرضيين وسقط على ركبتيه. البدلة الثقيلة جعلته يتحرك ببطء مضحك وهو يحاول النهوض. يوسف مدّ يده ليساعده، لكن المهندس رفض المساعدة بإشارة سريعة من يده، ونهض وحده بصعوبة. بعد أن ابتعد، قال يوسف لآدم بصوت يسمعه القريبون فقط:

ـ شايف؟ حتى وهو واقع... مش عايز يلمسنا.

آدم لم يرد. لكنه كان قد لاحظ شيئاً آخر في عيني المهندس وهو يرفض اليد الممدودة: ليس فقط الكبرياء... بل شيء يشبه الاشمئزاز السريع الذي حاول إخفاءه فوراً.

الفرق أصبح يظهر في كل شيء.

عندما يأكلون معاً، كان الأرضيون يقطعون الطعام إلى قطع صغيرة ويمضغون ببطء وحذر. أبناء المريخ كانوا يأكلون بسرعة أكبر وبكميات أوفر، أجسادهم تحتاج إلى طاقة أكثر رغم أن الأيض لديهم أصبح أكثر كفاءة. عندما يضحكون، كانت ضحكات القبيلة خشنة وقصيرة، بينما ضحكات المشرفين تبدو رفيعة وكأنها تبحث عن إذن بالوجود.

في غرفة الفحص الأسبوعية، صار آدم يلاحظ كيف تتحرك عينا الممرضة الأرضية عندما تضع الجهاز على صدره العريض. كانت تنظر إلى الفراء الكثيف لحظة أطول مما ينبغي، ثم تبعد بصرها بسرعة وتكتب في الجهاز. مرة واحدة لمست الفراء بطرف إصبعها دون قصد، وسحبت يدها كأنها لمست شيئاً ساخناً.

في تلك الليلة داخل الكهف، كانت الدائرة أكبر من المعتاد.

يوسف وقف في الوسط وقال:

ـ كل يوم بيزودوا المسافة بينا وبينهم. بيبصوا علينا كأننا حيوانات نجحت في التجربة. مش كأننا ناس.

ليلى ردت وهي تحدق في الأرض:

ـ وإحنا؟ إحنا مش بنبص عليهم كأنهم ضعاف؟

صمت قصير. ثم قال أحد الفتيان من الخلف:

ـ لأنهم ضعاف فعلاً. دي حقيقة مش كراهية.

آدم رفع رأسه أخيراً. صوت الزعيم كان هادئاً، لكنه ملأ الكهف كله:

ـ الحقيقة والكراهية بيمشوا مع بعض أحياناً. وده اللي يخوف.

نظر إلى الوجوه المحيطة به، واحداً واحداً.

ـ أنا شايف اللي أنتوا شايفينه. الصدور الضيقة، الجلد الأملس، الأصوات الرفيعة. شايف إزاي بيبعدوا عنّا شوية كل شهر. بس أنا كمان شايف حاجة تانية: إحنا بنبدأ نحب المسافة دي. وده أخطر من أي حاجة هما بيعملوها.

يوسف نظر إليه بحدة.

ـ يعني إيه؟ نفضل نحبهم وهما بيتعاملوا معانا كحيوانات؟

آدم أجاب بعد لحظة:

ـ لأ. يعني نفضل فاكرين إن القوة من غير رحمة... بتخلي الواحد وحش. مش قوي.

بعد أن تفرق الجميع، بقي آدم جالساً وحده وقتاً أطول. وضع كفه على الجدار الصخري البارد للكهف، وأحس بالاهتزاز الخفيف للعاصفة الترابية التي تبدأ بالتكوّن في الخارج.

تحت فراؤه كان جلده يتنفسه الهواء المريخي بحرية تامة.

وتحت صدره الواسع كان شيء آخر ينمو... أبطأ من الفراء، وأعمق من أي تكيف جيني.

شيء يشبه الكراهية.

وشيء آخر يشبه الخوف منها.

الفصل العاشر

الذكريات مع حنان

الذاكرة على المريخ لها طعم مختلف.

الجفاف يجعل الصور أوضح، والبرد يجعلها أثقل، والعزلة تجعلها تعود في الليل دون استئذان.

آدم كان يستلقي على سريره في المهجع، ينظر إلى السقف الشفاف حيث تتحرك النجوم ببطء شديد. الفراء على صدره يرتفع وينخفض مع أنفاسه العميقة. وفي رأسه كانت حنان تعود مرة أخرى.

لم تكن تعود كصورة واحدة. كانت تعود كطبقات.

أول طبقة: الصحراء الغربية على الأرض، وهو في الرابعة من عمره.

الرمل كان أصفر دافئاً تحت الشمس، لا أحمر بارداً. حنان كانت تركض أمامه بفستان أزرق صغير، شعرها الذهبي يتطاير. سقطت مرة فنهضت وهي تضحك، ركبها مجروحة قليلاً، ومدّت يدها له لتساعده على بناء «بيت» من الحجارة الصغيرة.

ـ إنت بطيء أوي يا آدم.

ـ لأن الحجارة تقيلة.

ـ طيب أنا هساعد. إحنا فريق.

يدُها الصغيرة كانت ناعمة ودافئة. يده هو كانت لا تزال ناعمة أيضاً في ذلك الوقت. جلسا ساعات يبنيان جدراناً تنهار كل مرة، ويضحكان كأن الانهيار هو الجزء الممتع.

الطبقة الثانية: المؤسسة البيضاء.

كانت تأتي في الزيارات المسموح بها، تحمل معها حلوى مهربة وأحياناً قصصاً عن القاهرة. تجلس بجانبه في الفناء وتسأله:

ـ ليه شعرك بقى أثقل من شعري؟

ـ مش عارف.

ـ طيب... ليه صدرك أوسع؟

ـ برضه مش عارف.

كانت تنظر إليه لحظة طويلة ثم تقول:

ـ مش مهم. إنت إنت.

في إحدى المرات، عندما بدأ الفراء الخفيف يظهر على ذراعيه، لمستْه بطرف إصبعها ثم سحبت يدها بسرعة، لكنها عادت ولمسته مرة أخرى ببطء أكثر.

ـ غريب... بس مش وحش.

الطبقة الثالثة: المحطة القمرية، عبر الشاشة.

وجهها كان أكبر قليلاً، صوتها أعمق قليلاً. عندما رأته لأول مرة بعد ظهور الفراء الواضح، صمتت ثانيتين كاملتين. ثم ابتسمت ابتسامة مائلة وقالت:

ـ بقيت شبه دب صغير.

ضحكت هي. أما هو فلم يستطع أن يضحك.

قبل انقطاع الاتصال مدّت يدها نحو الشاشة كأنها تحاول الإمساك به من المسافة المستحيلة.

ـ هتفضل فاكرني؟

ـ هافضل.

الطبقة الرابعة: الزيارة القصيرة على سطح المريخ.

كانت ترتدي بدلة الفضاء البيضاء الثقيلة، والخوذة الشفافة تخفي نصف تعبيراتها. لكنه عرفها من الطريقة التي ركضت بها نحوه رغم صعوبة الحركة. وقفا على الرمال الحمراء، يداها بالقفاز الأبيض تلامس يده ذات الفراء.

ـ بقيت طويل أوي.

ـ وإنتِ بقيتِ زي ما إنتي.

في تلك الساعة القصيرة جلسا على صخرة منخفضة بعيداً قليلاً عن أعين المشرفين. حنان كانت تتحدث عن الأرض: عن المطر، عن صوت السيارات، عن جدتها التي ماتت السنة الماضية. آدم كان يستمع، وفي داخله شيء يضيق.

قالت فجأة، وهي تنظر إلى الأفق المريخي:

ـ أنا بخاف عليكم.

ـ ليه؟

ـ لأنكم بقيتوا مختلفين أوي. وأنا لسه زي ما أنا. وخايفة يوم ييجي وأنا مش قادرة ألاقيك في الاختلاف ده.

آدم أراد أن يقول لها إنه يبحث عنها هو أيضاً في الاختلاف. لكنه لم يجد الكلمات. بدلاً من ذلك رفع يده ولامس الخوذة الشفافة عند مستوى خدها. هي وضعت يدها فوق يده من الجهة الأخرى للزجاج.

للحظة بدا كأنهما يلمسان بعضهما حقاً.

الآن، في المهجع المظلم على المريخ، عاد آدم إلى تلك اللحظة مرة بعد مرة.

كان يتذكر صوتها، ودفء يدها القديمة، والطريقة التي كانت تنطق بها اسمه كأنه شيء ثمين. كان يتذكر أيضاً أنها الوحيدة التي لم تنظر إلى فراؤه باشمئزاز، ولا إلى صدره الواسع كأنه تشوه، ولا إلى صمته كأنه نقص.

هي كانت تراه... آدم.

وفي الليالي التي كانت الكراهية تنمو فيها داخل الكهف، كانت صورة حنان تعود لتجلس بينه وبين الكلمات القاسية. كانت تذكّره أن هناك على الأقل إنساناً واحداً من «الضعفاء» لم يكن ضعيفاً في نظره. إنساناً واحداً لم يكن عدواً.

وضع آدم ذراعه فوق عينيه. الفراء خشن قليلاً ضد جفونه.

همس في الظلام، كأنه يخاطب شخصاً يبعد عنه ملايين الكيلومترات:

ـ لسه فاكرك.

ثم أضاف بعد لحظة، بصوت أهدى:

ـ وأنا خايف من اليوم اللي ممكن أنساك فيه... أو أكرهك فيه من غير ما أقصد.

خارج المهجع كانت رياح المريخ تضرب القبة الزجاجية برفق متقطع.

وداخل صدره الواسع كانت الذكريات تتنفس ببطء... كأنها هي أيضاً تحاول أن تتكيف مع هواء لم تعد تنتمي إليه تماماً.

الفصل الحادي عشر

التخطيط

الكهف كان أكثر ظلمة من المعتاد تلك الليلة.

العاصفة الترابية في الخارج حجبت حتى الضوء الخافت للنجوم، فصار المدخل مجرد فتحة سوداء لا يُرى ما وراءها. داخل القاعة الطبيعية جلس خمسة وعشرون شاباً

وشابة في دائرة ضيقة، ركبهم تلامس تقريباً، وأنفاسهم العميقة تتردد في الهواء الراكد كأنها صوت واحد.

يوسف كان يقف في الوسط هذه المرة. لم ينتظر إذن الزعيم.

ـ خلص كلام. خلص تفكير. الوقت جه.

رفع يده وأظهر خريطة مرسومة بخط يدوي على قطعة قماش رمادية قديمة. كانت القباب الزجاجية مرسومة بدوائر متصلة، والأنفاق بينها خطوط مستقيمة، وأماكن الحراسة وغرف المراقبة معلّمة بنقاط حمراء من دم جاف (دم أحدهم من جرح قديم، قال إنه «أنسب لون»).

ـ غروب الشمس بعد تلاتة أسابيع بالظبط. في اليوم ده الدورة بتاعة المراقبة بتكون أضعف. اتنين بس من الحراس بيكونوا صاحيين، والباقي في المناوبة الليلية جوه.

ليلى قالت بصوت منخفض لكنها حاد:

ـ إنت بتكلم عن قتل ناس.

يوسف نظر إليها كأنها قالت شيئاً سخيفاً.

ـ أنا بتكلم عن حرية. هما مش هيدونا إياها. إحنا هناخدها.

بدأ يشرح التفاصيل بهدوء لافت:

المجموعة الأولى — ستة أشخاص — تتولى غرف المراقبة الرئيسية. يقطعون الكهرباء والاتصالات في اللحظة نفسها.

المجموعة الثانية — ثمانية — تدخل المساكن الزجاجية الخاصة بالمشرفين والأطباء. معظمهم يكونون نائمين أو في بدلاتهم الداخلية.

المجموعة الثالثة — الباقون — يحرصون على تدمير مولدات الأكسجين الاحتياطية وكسر الأقفال الهوائية للقباب واحدة بعد الأخرى. الهواء المريخي سيدخل بسرعة. من لم يمت بالاختناق... سيموت بالبرد خلال ساعات.

ـ وإحنا؟ سألت فتاة من الصف الخلفي. ـ هنفضل فين؟

يوسف ابتسم ابتسامة قصيرة تظهر أسنانه.

ـ إحنا هنكون بره. في الكهوف. مستنيين الشمس تطلع على كوكب نظيف.

آدم كان جالساً في مكانه المعتاد، ظهره إلى الجدار الصخري. طوال الشرح لم يتكلم. فقط كان يراقب الوجوه. بعضها متوتر، بعضها متحمس، بعضها خائف ويحاول إخفاء الخوف تحت ملامح صلبة.

عندما انتهى يوسف، ساد صمت طويل. ثم قال آدم بصوته الهادئ الذي كان يملأ المكان دائماً دون أن يرفعه:

ـ قتْل كل واحد؟ حتى اللي ما أذوناش؟ حتى اللي عالجونا لما مرضنا؟ حتى الأطفال؟

كان هناك طفلان صغيران في البعثة الأرضية: ابنة أحد المهندسين، وابن طبيبة. كلاهما دون العاشرة.

يوسف رد فوراً:

ـ الأطفال هيكبروا ويبقوا زي أهاليهم. الرحمة دلوقتي ضعف. الضعف هو اللي خلّانا نعيش سنين تحت نظرهم كأننا حيوانات في قفص.

همهمة موافقة من أكثر من جهة. ليلى هزّت رأسها بشدة.

ـ أنا مش هشارك في قتل أطفال. ولا في قتل ناس نائمة.

يوسف التفت إليها بسرعة.

ـ يبقى اقعدي في القبة واستني الهواء يدخل. شوفي هتحسي بإيه وأنتِ بتختاري.

آدم رفع يده مرة واحدة فقط. الصمت عاد فوراً.

ـ الخطة دي مش خطة حرية. دي خطة إبادة. والفرق بينهم كبير.

يوسف ضحك هذه المرة بصوت مسموع.

ـ إنت الزعيم يا آدم... بس الزعيم مش معناه إنك الوحيد اللي بيفكر. القبيلة قررت إنها مش هتفضل عبيد. لو إنت مش قادر تمشي مع القرار... قول دلوقتي.

العيون كلها اتجهت إلى آدم. كان يعرف أن هذه اللحظة ستأتي يوماً ما. كان يشمها في الهواء منذ أسابيع.

قال ببطء:

ـ أنا مش ضد إننا ناخد حياتنا في إيدينا. أنا ضد إننا نبقى وحوش عشان نبقى أحرار. في فرق.

يوسف اقترب خطوتين.

ـ والبديل؟ نفضل نستناهم هما يقرروا امتى يسيبونا؟ ولا نفضل نحلم بحنان بتاعتك لحد ما نموت؟

اسمها سقط في الكهف كحجر.

آدم لم يتحرك. لكن شيئاً في عينيه تغيّر للحظة قصيرة جداً. ثم عاد صوته إلى هدوئه المعتاد:

ـ بعد تلاتة أسابيع... القبيلة هتجتمع تاني هنا. وكل واحد هيقول قراره النهائي. مش قرار يوسف. مش قراري. قراره هو.

وقف. الفراء على كتفيه تحرك مع الحركة البطيئة.

ـ لحد اليوم ده... مفيش دم. مفيش تجهيز أسلحة. مفيش كلام بره الكهف. اللي يخالف... يخرج من القبيلة.

خرج من الدائرة واتجه نحو المدخل. لم يلتفت خلفه. كان يعرف أن العيون تتابعه، بعضها بغضب، وبعضها بارتياح سري، وبعضها بانتظار ما سيقرره الزعيم حقاً عندما يأتي اليوم.

خارج الكهف كانت العاصفة ما زالت مستمرة. الغبار يضرب وجهه بقوة، يدخل بين شعر الفراء، يلتصق بجلده. وقف لحظة يواجه الريح، يتنفس الهواء المريخي البارد بعمق، ويشعر أنه للمرة الأولى منذ زمن طويل... لا يعرف إن كان يقف على أرض صلبة أم على حافة شيء ينهار.

خلفه، داخل الكهف، عاد صوت يوسف منخفضاً لكنه واضح:

ـ تلاتة أسابيع. وبعدين... خلاص.

ولم يعترض أحد هذه المرة.

الفصل الثاني عشر

ليلة القرار

الليلة التي تسبق التنفيذ كانت أكثر هدوءاً من كل الليالي التي سبقتها.

العاصفة انتهت عند الغروب، وتركت السماء نظيفة وحادة كشفرة. النجوم بدت أقرب من المعتاد، والقمر الأرضي الصغير يطل من الأفق كعين باهتة لا تريد أن تنام. داخل القباب الزجاجية كان الصمت ثقيلاً. المشرفون أنهوا مناوباتهم، والأضواء خُفِّضت إلى الوضع الليلي، وأجهزة المراقبة كانت تعمل بنبضها الرتيب المعتاد.

آدم لم يذهب إلى الكهف.

بقي في المهجع بعد أن نام الجميع. كان يجلس على حافة سريره، قدماه على الأرضية المعدنية الباردة، ويده تمر ببطء على الفراء الكثيف الذي يغطي ساعده. من النافذة الصغيرة كان يرى جزءاً من السطح الأحمر الممتد تحت ضوء النجوم. غداً عند الغروب... يفترض أن يتغير كل شيء.

ثلاث مرات قام ومشى إلى باب المهجع ثم عاد.

ثلاث مرات وقف أمام المرآة المعدنية الصغيرة ونظر إلى وجهه: العينان الغائرتان قليلاً، الفراء الخفيف حول الفك، الصدر العريض الذي يرتفع وينخفض ببطء كأنه محرك قديم يعمل بكفاءة مرعبة.

في المرة الرابعة أغلق عينيه.

حنان جاءت في الحلم دون استئذان.

لم تكن في بدلة فضاء هذه المرة. كانت ترتدي الفستان الأزرق القديم، شعرها الذهبي محلول، وركبتاها مجروحتان قليلاً كما في ذلك اليوم البعيد في صحراء الأرض. كانت تجلس على الرمل الأصفر وتبني بيتاً من الحجارة، وترفع رأسها إليه وتبتسم.

ـ إنت بطيء أوي يا آدم.

ـ الحجارة تقيلة.

ـ طيب أنا هساعد. إحنا فريق.

مدّت يدها.

عندما لمسها، كانت يدها ناعمة ودافئة كما كانت دائماً. ثم تغير الحلم. الرمل الأصفر صار أحمر. الفستان الأزرق صار بدلة بيضاء. يدها صارت داخل قفاز، ووجهه هو صار مغطى بالفراء. لكنها لم تسحب يدها.

قالت بصوت واضح جداً هذه المرة:

ـ لو قتلتهم... هتفضل فاكرني؟

أم هتفضل فاكر إنك كنت قادر توقف؟

حاول أن يجيب. الصوت لم يخرج.

حاول أن يمسك بيدها بقوة أكبر. القفاز تلاشى، واليد الناعمة صارت بعيدة. ثم رأى وجهها الشاحب كما رآه في الزيارة الأخيرة على المريخ، عيناها السوداوان تنظران إليه من خلف الخوذة، وفيهما شيء يشبه الوداع المبكر.

استيقظ وهو يتنفس أسرع من المعتاد.

الغرفة كانت ما زالت مظلمة. يوسف نائم على السرير المجاور، وجهه إلى الحائط، أحد ذراعيه متدلٍ. ليلى في الزاوية الأخرى، مغطاة حتى رأسها. الباقون نيام أيضاً، أجسادهم تتنفس ببطء المريخ العميق.

آدم قام ومشى إلى النافذة. وضع جبهته على الزجاج البارد. الخارج كان هادئاً بشكل مخيف. لا رياح، لا غبار متحرك، فقط السطح الأحمر الممتد والصخور السوداء والنجوم التي لا ترحم.

همس لنفسه، كأنه يخشى أن يسمعه أحد حتى في هذا الصمت:

ـ أنا مش عايز دم.

ثم أضاف بعد لحظة، أصدق مع نفسه هذه المرة:

ـ بس أنا خايف كمان من اليوم اللي بعد الدم... لو ما حصلش.

كان يعرف أن يوسف لن يتراجع.

كان يعرف أن أكثر من نصف القبيلة جاهز للتنفيذ.

كان يعرف أنه لو وقف ضدهم الآن، قد يخسر مكانه كزعيم... وربما يخسر أكثر من ذلك.

لكنه كان يعرف أيضاً شيئاً آخر:

أن صورة حنان في الحلم لم تكن مجرد ذكرى. كانت سؤالاً.

سؤال لن يستطيع أن يهرب منه حتى لو نجح التمرد وامتلأ الكوكب بهواء نظيف من جثثهم.

جلس القرفصاء تحت النافذة، ظهره إلى الجدار، ورأسه بين ركبتيه. الفراء على ذراعيه كان يلامس وجهه. ظل كذلك وقتاً طويلاً، يراقب الظل الذي يتحرك ببطء شديد مع دوران المريخ، وينتظر أن تشرق الشمس على آخر يوم يمكن أن يُسمّى فيه آدم... قبل أن يصبح شيئاً آخر.

خارج القبة، عند الأفق الشرقي، بدأ خيط رفيع من الضوء البرتقالي يظهر بتردد.

غروب الشمس القادم كان لا يزال بعيداً بساعات طويلة.

لكن ليلة القرار كانت قد بدأت تلفظ أنفاسها الأخيرة... تاركة الزعيم وحيداً مع السؤال الذي لم يعد يحتمل إجابة سهلة.

الفصل الثالث عشر

الصخرة الحمراء

الفجر المريخي كان باهتاً ولونه كلون الصدأ المخفف بالماء.

آدم خرج من القبة قبل أن يستيقظ أحد. ارتدى فقط سروالاً قصيراً رمادياً، وترك صدره وذراعيه عاريين. الفراء الكثيف كان كافياً ليحميه من البرد الجاف الذي يعض الجلد في هذه الساعة. سار باتجاه الشرق، نحو سلسلة التلال المنخفضة التي تخفي خلفها فوهة بركان نيوتن القديمة.

الطريق كان مألوفاً. مرّ عليه عشرات المرات أثناء التدريبات الطويلة. لكن هذه المرة كانت خطواته أثقل، رغم أن الجاذبية لم تتغير. كل قدم يضعها على الرمال الحمراء كانت تترك أثراً واضحاً، ثم يعود الغبار الناعم ليملأها ببطء كأنه يحاول محو الدليل.

وصل إلى حافة الفوهة بعد ساعة ونصف.

البركان خامد منذ آلاف السنين، جدرانه الداخلية مائلة وسوداء، وقاعه مليء بصخور متكسرة بأحجام مختلفة. نزل بحذر، يده تلمس الجدار الخشن من حين لآخر. في القاع اختار صخرة حمراء داكنة، بحجم قبضة يده المغلقة مرتين، حافتها حادة من جانب وثقيلة بشكل مناسب. وزنها في جاذبية المريخ كان مريحاً... كأنها صُنعت خصيصاً لهذه المهمة.

رفعها، اختبر توازنها، ثم وضعها تحت ذراعه وعاد يصعد.

الشمس كانت قد ارتفعت قليلاً عندما عاد إلى السهل. الضوء جعل الصخرة تبدو أكثر احمراراً، كقطعة من الكوكب نفسه قرر أن يحملها معه. سار باتجاه مجمع المساكن الزجاجية الخاصة بالبعثة الأرضية. القباب الأصغر كانت منفصلة عن القباب الرئيسية بمسافة مئتي متر تقريباً، متصلة فقط بنفق طويل منخفض.

كل خطوة كانت تقربه من بيت المهندس مراد شوكت.

آدم كان يعرف الموقع بدقة. في الزيارات النادرة التي سُمح فيها بالتواجد قرب مساكن المشرفين، كان قد لاحظ البيت: قبة صغيرة شفافة، لها حديقة داخلية زجاجية صغيرة يزرع فيها مراد بعض الأعشاب الأرضية، ونافذة جانبية تطل مباشرة على السهل.

يده التي تحمل الصخرة كانت جافة. الفراء على راحته يحتك بسطح الصخرة الخشن. تحت الفراء كان نبضه أبطأ من المعتاد، كأن جسده يحاول أن يهدّئه أو يجهّزه. صدره الواسع يرتفع وينخفض بانتظام عميق. الهواء المريخي يدخل إلى رئتيه بحرية تامة... حرية كان من المفترض أن يموت من أجلها آخرون بعد ساعات.

توقف مرة واحدة فقط.

عند صخرة كبيرة سوداء في منتصف الطريق، وضع الصخرة الحمراء عليها للحظة، وفرك يديه معاً. نظر إلى الأفق حيث ستغرب الشمس بعد ساعات طويلة. السماء كانت صافية بشكل نادر. لا عاصفة، لا غبار معلّق. يوم مثالي للتنفيذ حسب خطة يوسف.

همس لنفسه، والصوت ضاع في الهواء الرقيق:

ـ مش لازم أفكر. بس أمشي.

التقط الصخرة من جديد وأكمل.

عندما اقترب من مجمع المساكن، اختبأ خلف أحد الألواح الشمسية المعطلة منذ سنوات. راقب. لا حركة ظاهرية. معظم الأرضيين كانوا لا يزالون في نومهم المتأخر، أو في غرف المراقبة الرئيسية داخل القباب الكبرى. بيت مراد كان هادئاً. الستائر الداخلية نصف مسدلة. ضوء خافت يطل من الغرفة الخلفية.

آدم خرج من خلف اللوح وسار الخطوات الأخيرة ببطء محسوب. كل حواسه كانت مفتوحة: صوت الريح الخفيفة، طقطقة المعدن وهي تنكمش مع ارتفاع الحرارة البطيء، رائحة الغبار الجاف، وحتى الاهتزاز البعيد لمولدات الكهرباء داخل القباب.

وصل إلى الباب الخارجي للقبة الصغيرة.

اليد التي لا تحمل الصخرة امتدت نحو لوحة الدخول. كان يعرف الرمز. راقبه مرة من الخلف عندما كان مراد يدخله أمامه دون حذر. الأرقام ضغطت نفسها تحت أصابعه واحداً بعد الآخر.

الباب أصدر صوتاً خفيفاً وانزلق جانباً.

الهواء الدافئ الغني بالأكسجين اندفع إلى وجهه كجدار ناعم. للحظة قصيرة أحسّ بشيء يشبه الدوخة... جسده الذي اعتاد الهواء المريخي الرقيق يحتج على الكثافة المفاجئة. ثم تعدّاها.

دخل.

الصخرة الحمراء كانت ما زالت تحت ذراعه.

وقلبه البطيء كان يدق الآن بصوت يسمعه هو وحده في الصمت الداخلي للبيت.

الفصل الرابع عشر

الغرفة المريضة

الهواء داخل القبة الصغيرة كان دافئاً ورطباً نسبياً، مشبعاً برائحة الأعشاب التي يزرعها مراد في الزاوية وبشيء آخر... شيء معدني خفيف يشبه رائحة الأدوية.

آدم أغلق الباب خلفه برفق. الصخرة ما زالت تحت ذراعه الأيسر، مخفية جزئياً بفراؤه. وقف لحظة في الممر القصير يسمع. من الغرفة الخلفية كان يأتي صوت تنفس متقطع، وصوت رجل يهمس كلمات غير مفهومة.

تحرّك نحو الصوت.

الباب الداخلي كان مواربا. دفعه ببطء.

الغرفة كانت شبه مظلمة. الستائر مسدلة إلا شقاً ضيقاً يدخل منه ضوء الصباح المريخي البرتقالي. على السرير المنخفض كانت حنان مستلقية. وجهها شاحب أكثر مما يتذكر، وشعرها الذهبي منتشر على الوسادة كأنه فقد بريقه. عيناها مغلقتان، وصدرها الصغير يرتفع وينخفض بصعوبة واضحة، كل نفس يبدو كأنه يكلفها جهداً هائلاً.

مراد شوكت كان راكعاً على الأرض بجانب السرير، ظهره إلى الباب. إحدى يديه تمسك بيد ابنته، واليد الأخرى تمسح جبينها بقطعة قماش مبللة. لم يسمع دخول آدم في البداية.

ثم التفت.

وجهه كان محطماً بطريقة لم يرها آدم من قبل. العيون الغائرة، الشعر الأشعث، آثار الدموع الجافة على الخدين. عندما رأى آدم واقفاً في الباب، لم يصرخ ولم يقف. فقط نظر إليه نظرة طويلة فارغة، كأنه لا يصدق ما يراه أو لا يملك طاقة للدهشة.

ـ آدم...؟

الصوت كان مبحوحاً ومكسوراً.

آدم لم يرد. كانت الصخرة ثقيلة فجأة تحت ذراعه. فراؤه يلامس سطحها الخشن، وقلبه الذي اعتاد النبض البطيء بدأ يخونه قليلاً.

مراد نظر إلى الصخرة، ثم إلى وجه آدم، ثم عاد إلى ابنته. فهم كل شيء في ثانية واحدة. لكنه لم يتحرك للدفاع عن نفسه. بدلاً من ذلك أخفض رأسه واقترب أكثر من سرير حنان.

ـ هي بتحتضر من امبارح بالليل. الجهاز... جهاز الاتصال بتاعي بايظ. مقدرش أستدعي حد. حاولت أروح بنفسي للقباب الكبيرة... بس مقدرتش أسيبها لوحدها.

رفع عينيه من جديد. كانت ممتلئة بشيء يشبه الاستسلام الكامل.

ـ لو جيت عشان تقتلني... اقتلني. بس بعد ما تساعدني أستدعي الطبيب. هي لسه بتتنفس.

آدم ظل واقفاً في مكانه. الصورة أمامه كانت أثقل من الصخرة: الرجل الذي كان جزءاً من الذين صنعوه، راكع ومهزوم، وابنته التي كانت الضحك والدفء واليد الناعمة في ذكرياته، مستلقية كأنها تتلاشى مع كل نفس.

حنان فتحت عينيها فجأة.

العينان السوداوان اللتان كانتا دائماً لامعتين بدتا الآن باهتتين وعميقتين أكثر من اللازم. نظرت إلى أبيها أولاً، ثم انزلق بصرها ببطء نحو الباب... وتوقف عند آدم.

شفتاها تحركتا. صوتها كان خافتاً جداً، يكاد يكون هماً:

ـ آدم...؟

مراد أمسك يدها بقوة أكبر.

ـ أنا هنا يا حبيبتي. آدم كمان هنا.

هي حاولت أن تبتسم. الابتسامة لم تكتمل. نظرت إلى الفراء على ذراع آدم، ثم إلى الصخرة التي كان يحملها، ثم أغلقت عينيها من جديد كأنها فهمت أكثر مما يجب في هذه الحالة.

آدم شعر أن شيئاً ينكسر داخل صدره الواسع. ليس كسراً جسدياً. شيئاً أقدم، كان يحاول أن يبقى صلباً منذ ليالٍ طويلة.

اليد التي تحمل الصخرة ارتخت.

الصخرة الحمراء سقطت على الأرضية المعدنية بصوت مكتوم ثقيل. تدحرجت قليلاً ثم توقفت عند قدميه.

مراد نظر إلى الصخرة، ثم إلى آدم، وعيناه امتلأتا فجأة بدموع جديدة لم تسقط بعد.

آدم تقدم خطوة واحدة نحو السرير. صوته عندما خرج كان أجش وغريباً حتى على أذنيه:

ـ فين جهاز الاتصال الاحتياطي؟

مراد أشار بيده المرتجفة نحو الطاولة الصغيرة في الزاوية. آدم التقط الجهاز، ضغط الأزرار بسرعة، وسمع الصفارة الخافتة التي تعني أن الإشارة وصلت إلى القباب الرئيسية.

ثم وقف بجانب السرير، ينظر إلى وجه حنان الشاحب، ويداه فارغتان الآن... إلا من الفراء والرعشة الخفيفة التي لم يعد قادراً على إخفائها.

الفصل الخامس عشر

الطبيب

الطبيب وصل بعد اثنتي عشرة دقيقة.

كان يركض عبر النفق الزجاجي مرتدياً بدلة داخلية فقط، دون خوذة، حاملاً حقيبة طبية سوداء كبيرة. عندما دخل الغرفة ورأى آدم واقفاً بجانب السرير، توقف لحظة قصيرة جداً. عيناه انتقلتا من الفراء الكثيف إلى الصخرة الحمراء الملقاة على الأرض، ثم إلى وجه مراد المنهار، ثم استقرتا على حنان.

لم يسأل شيئاً.

ركع بجانب السرير فوراً، فتح الحقيبة، وأخرج أجهزة صغيرة وألصقها على صدر حنان وصدغها. شاشة صغيرة أضاءت بأرقام خضراء وخطوط متقطعة. الطبيب نظر إليها ثم ضغط فكه بقوة.

ـ منذ متى وهي هكذا؟

مراد أجاب بصوت مكسور:

ـ من منتصف الليل تقريباً. كانت بتشتكي من صداع شديد، وبعدين سخونية، وبعدين... بقت مش قادرة تتنفس كويس.

الطبيب وضع قناعاً صغيراً على وجهها وربطه بأسطوانة أكسجين محمولة. ثم حقنها بشيء في ذراعها. حنان لم تتحرك. فقط استمر صدرها الصغير في الارتفاع والانخفاض بصعوبة، كل نفس أضعف من الذي قبله.

آدم ظل واقفاً عند نهاية السرير. يداه فارغتان الآن، مستندتان إلى جانبيه. الفراء على أصابعه كان يرتجف قليلاً رغم أنه لم يكن يشعر بالبرد. كان ينظر إلى وجه حنان كأنه يحاول أن يحفظه للمرة الأخيرة: الخط الرفيع للحاجبين، الرموش الطويلة، الشفتان الشاحبتان اللتان كانتا تضحكان بسهولة في الذكريات.

الطبيب رفع رأسه نحو مراد.

ـ الجهاز العصبي بيتهار. ممكن يكون مضاعفات من التعرض الطويل لنسبة أكسجين غير مستقرة... أو فيروس ما عرفناش نكتشفه بدري. أنا هعمل اللي أقدر عليه... بس لازم تكون مستعد.

مراد أمسك يد ابنته بكلتا يديه ودفن وجهه فيها. لم يبكِ بصوت. فقط ارتجف جسدها كله.

آدم تقدّم نصف خطوة دون أن يدري.

حنان فتحت عينيها من جديد.

البصر كان غير ثابت، يتنقل بين الوجوه كأنه يبحث عن شيء مألوف. عندما استقر على آدم، توقفت العينان لحظة أطول. شفتاها تحركتا. الطبيب أبعد القناع قليلاً ليسمح لها بالكلام.

صوتها كان أضعف من همس:

ـ إنت... جيت.

آدم أومأ برأسه. لم يستطع أن يتكلم.

هي حاولت أن ترفع يدها. اليد ارتفعت بضعة سنتيمترات فقط ثم سقطت على الغطاء. آدم مدّ يده — اليد المغطاة بالفراء الداكن — وأمسك بأصابعها الباردة والرقيقة. للحظة بدت يده ضخمة وخشنة بجانبها، كأنها يد كائن آخر تماماً.

حنان نظرت إلى أصابعهما المتشابكتين. ثم قالت، والكلمات تخرج متقطعة:

ـ فاكر... البيت... اللي بنيناه... من الحجارة؟

ـ فاكر.

ـ كان... بينهار دايماً.

ـ أه.

ابتسامة صغيرة جداً مرت على شفتيها.

ـ بس... كنا... فريق.

أغمضت عينيها. التنفس صار أبطأ. الطبيب انحنى بسرعة أكبر، يضغط على صدرها بأطراف أصابعه، يراقب الشاشة التي بدأت خطوطها تفقد انتظامها.

مراد كان يهمس اسمها مراراً كأنه يحاول أن يبقيها بالطريقة الوحيدة التي يعرفها.

آدم لم يترك يدها.

ظل ممسكاً بها وهو يشعر بالبرودة تنتقل من أصابعها إلى فراؤه، ثم إلى جلده، ثم أعمق. كان يراقب الوجه الشاحب الذي كان يوماً أكثر الوجوه دفئاً في حياته، ويتذكر الرمل الأصفر، والفستان الأزرق، والضحكة التي كانت تملأ الفناء في المؤسسة البعيدة على الأرض.

الخطوط على الشاشة صارت مستقيمة.

الطبيب توقف عن الضغط. أبعد يديه ببطء، وجلس على عقبيه، ورأسه منخفض.

مراد أطلق صوتاً واحداً مكتوماً، كأنه شيء انكسر داخله دفعة واحدة. ثم انحنى فوق ابنته وضمّها إليه، وجهه مدفون في شعرها الذهبي الباهت.

آدم أفلت يدها برفق.

وقف ينظر إلى المشهد لحظة أخرى. ثم انحنى، التقط الصخرة الحمراء من على الأرض، وخرج من الغرفة دون أن يقول كلمة.

في الممر القصير توقف. وضع ظهره إلى الجدار الزجاجي، والصخرة ما زالت في يده. خارج القبة كان الضوء البرتقالي للصباح المريخي يزداد قوة. داخل صدره الواسع كان هناك فراغ جديد... أكبر من أي كهف، وأبرد من أي هواء على هذا الكوكب.

لم يبكِ.

الفراء على وجهه كان جافاً.

فقط وقف هناك، يتنفس ببطء، ويحاول أن يتذكر كيف كان صوتها عندما قالت «إحنا فريق»... قبل أن يضيع الصوت نهائياً في الصمت.

الفصل السادس عشر

العودة إلى الكهف

خرج آدم من قبة مراد وهو لا يزال يحمل الصخرة الحمراء.

الشمس كانت قد ارتفعت أكثر، والضوء البرتقالي القاسي يضرب السطح الأحمر فيجعله يلمع كأنه مغطى بطبقة رقيقة من الدم الجاف. سار باتجاه التلال دون أن ينظر خلفه. خطواته كانت سريعة هذه المرة، لكنها غير منتظمة. الفراء على صدره وذراعيه كان ممتلئاً بغبار الطريق، ويداه ترتعشان قليلاً رغم أنه لم يعد يحمل شيئاً ثقيلاً... سوى الصخرة التي لم يعد يعرف لماذا ما زال ممسكاً بها.

وصل إلى الكهف قبل الظهر بقليل.

المدخل كان مظلماً كالعادة. انحنى ودخل. في الداخل كانت القبيلة كلها تقريباً مجتمعة. وجوههم متوترة، بعضهم يجلس القرفصاء، وبعضهم واقف يتكئ على الجدران الصخرية. يوسف كان في الوسط، يشرح شيئاً على الخريطة القديمة. عندما ظهر آدم، توقف الكلام فجأة.

كل العيون اتجهت إليه.

يوسف ابتسم ابتسامة عريضة قصيرة.

ـ رجعت بدري. خلصت؟

آدم لم يجب فوراً. سار نحو وسط الدائرة وألقى الصخرة الحمراء على الأرض بقوة. الصوت الذي أحدثته كان حاداً وواضحاً في الصمت. تدحرجت قليلاً ثم استقرت بين أقدامهم، عليها بقع باهتة من غبار الطريق... ولا شيء آخر.

يوسف نظر إلى الصخرة، ثم إلى يدي آدم الفارغتين، ثم إلى وجهه.

ـ إيه اللي حصل؟

آدم رفع رأسه. في الضوء الخافت المتسرب من المدخل كانت عيناه محمرتين، لكن الدموع لم تكن تسيل. الفراء حولهما كان جافاً. صوته عندما خرج كان أجش ومنخفضاً، لكنه ملأ الكهف كله:

ـ حنان ماتت.

صمت ثقيل جداً. حتى يوسف لم يجد رداً فورياً.

آدم تابع، وهو ينظر من وجه إلى وجه:

ـ رحت عشان أقتل أبوها. لقيتها بتحتضر. استدعيت الطبيب. وماتت وأنا ماسك إيدها.

ليلى وضعت يدها على فمها. أحد الفتيان في الخلف أخفض رأسه. يوسف ظل واقفاً، لكن ابتسامته اختفت تماماً.

آدم أخذ نفساً عميقاً من هواء الكهف الراكد، ثم قال بصوت أوضح:

ـ الخطة ملغية.

يوسف تقدم خطوة.

ـ إيه؟

ـ ملغية. مفيش قتل النهارده. مفيش تدمير قباب. مفيش دم.

صوت يوسف ارتفع فجأة:

ـ إنت مجنون؟ عشان بنت أرضية واحدة ماتت... هتلغي كل حاجة؟ إحنا استنينا سنين عشان اللحظة دي!

آدم نظر إليه بثبات. للمرة الأولى منذ أن صار زعيماً، كان صوته يحمل شيئاً يشبه الغضب الهادئ:

ـ مش عشان بنت واحدة. عشان أنا شفت إزاي الموت شكله وهو قريب. وشفت أبوها راكع بيبكي. وشفت إيدي وهي بترتخي جوا إيدي. ولو قتلناهم كلهم النهارده... هفضل شايف المنظر ده في كل وش من اللي هنقتلهم. ومش هقدر أعيش معاه.

يوسف ضحك ضحكة قصيرة خشنة مليئة بالسخرية.

ـ إنت ضعيف. زيهم.

آدم أجاب فوراً:

ـ ممكن. بس الضعف اللي بيخلي الواحد يقتل ناس نائمة وأطفال... أنا مش عايزه. والقبيلة لو عايزاه... تختار زعيم تاني دلوقتي.

رفع يديه قليلاً، كأنه يعرض شيئاً.

ـ أنا مش هشارك في إبادة. ومش هسمح بيها وأنا لسه هنا. اللي عايز يكمل من غيري... يتفضل. لكن هيبقى من غير موافقتي... ومن غير اسم القبيلة.

الصمت عاد أثقل من قبل.

ليلى كانت أول من تحركت. وقفت ومشت نحو آدم ووقفت بجانبه دون أن تقول كلمة. ثم تبعها فتى آخر، ثم فتاة، ثم اثنان من الخلف. تدريجياً انقسمت الدائرة. أكثر من نصفهم وقفوا خلف آدم أو بجانبه. الباقون ظلوا قرب يوسف، مترددين أو غاضبين.

يوسف نظر إلى المجموعة المنشقة، ثم إلى الصخرة الحمراء على الأرض، ثم إلى آدم. وجهه كان متصلباً، لكن شيئاً في عينيه كان يشبه الخسارة المفاجئة.

ـ إنت خذلتنا.

آدم هز رأسه ببطء.

ـ لأ. أنا رفضت إننا نخيّب نفسنا.

ثم انحنى، التقط الصخرة الحمراء مرة أخيرة، ومشى بها نحو الجدار الداخلي للكهف. وضعها هناك بعناية، كأنها علامة أو شاهد. عندما استدار من جديد، كان صوته قد عاد إلى هدوئه القديم، لكنه كان نهائياً:

ـ الشمس هتغرب بعد ساعات. اللي عايز يفضل هنا ويتكلم عن سلام... يفضل. اللي عايز يمشي... الباب مفتوح.

خرج من الدائرة واتجه نحو المدخل. الضوء البرتقالي في الخارج كان ينتظره. خلفه سمع حركة أقدام، وهمسات، وصوت يوسف وهو يقول شيئاً غاضباً لم يعد يصل إليه بوضوح.

عندما خرج إلى السطح، وضع يده على صدره الواسع. القلب كان يدق أسرع من المعتاد. الفراغ الذي تركته حنان كان ما زال هناك، كبيراً وباردًا... لكنه لم يعد يدفعه نحو الدم.

رفع رأسه إلى السماء المريخية الصافية، وتنفس الهواء الرقيق بعمق.

ثم بدأ السير عائداً نحو القباب... هذه المرة بيد فارغة.

الفصل الإضافي الأول

ليلى

كان الكهف فارغاً تقريباً بعد منتصف الليل.

العاصفة الترابية في الخارج كانت تخمد ببطء، والغبار يتساقط كالمطر الناعم على المدخل. آدم دخل متأخراً، بعد أن قضى ساعات طويلة يمشي وحده على السطح. وجد ليلى جالسة في الزاوية الأبعد، ظهرها إلى الجدار الصخري، ركبها مرفوعتان، وذراعاها حولهما. فراؤها الداكن يلمع قليلاً في الضوء الخافت المتسرب من الخارج.

لم تتكلم في البداية. فقط رفعت رأسها ونظرت إليه. عيناها كانتا لامعتين بطريقة مختلفة عن العادة.

ـ كنت مستنياك ـ قالت بصوت منخفض.

آدم جلس على مسافة متر منها. لم يرد. كان متعباً، وصدره ما زال ممتلئاً بصورة حنان الشاحبة وهي تموت.

ليلى زحفت أقرب. الفراء على فخذيها احتكّ بالرمال الباردة داخل الكهف. عندما صارت على بعد ذراع منه، مدت يدها ووضعت كفها على صدره العريض. أصابعها غاصت بين الشعر الكثيف، وراحت تتحسس الجلد الساخن تحته.

ـ أنا عارفة إنك لسه شايفها. عارفة إنك حزين. بس أنا كمان موجودة.

آدم أمسك معصمها، لكنه لم يبعدها.

ـ ليلى...

هي لم تنتظر بقية الجملة. نهضت على ركبتيها، ووضعت الركبة بين فخذيه، ثم مالت بجسدها كله نحوه. فراؤها لامس فراؤه من الصدر إلى البطن. الحرارة الجسدية كانت أعلى من حرارة البشر العاديين، وأكثر كثافة. شعر بثدييها المغطيين بالفراء الناعم يضغطان على عضلات صدره، وبالحلمات الصلبة تختبئ تحت الطبقة الداكنة.

قبلته.

فمها كان حاراً وجائعاً. لسانها دخل فمه دون تردد، ويدها الأخرى نزلت إلى ساقه وراحت تتحسس الفراء الكثيف على فخذه الداخلي صعوداً. عندما وصلت إلى عضوه، وجدته قد بدأ يتصلب تحت السروال القصير. أمسكت به من فوق القماش، وضغطت بقوة، ثم أدخلت أصابعها تحت الحافة وسحبته خارجاً.

كان سميكاً وطويلاً، والرأس منتفخاً ولامعاً بالفعل. ليلى أنزلت رأسها دون كلمة، وفتح فمها عليه. لسانها الدافئ دار حول الحشفة أولاً، ثم ابتلعته ببطء حتى وصل إلى حلقها. الفراء على خديها كان يحتك بفخذيه مع كل حركة صعود وهبوط. صوتها المختنق والبلل كان يملأ الكهف الصغير.

آدم وضع يده على رأسها، أصابعه تغوص في شعر رأسها المختلط بالفراء الخفيف على رقبتها. هي زادت السرعة، يدها الأخرى تمسك بقاعدة قضيبه وتعصرها بينما فمها يعمل بشهوة واضحة. لعابها سال على الفراء الكثيف عند أسفل بطنه.

عندما أحس أنها ستجعله ينتهي مبكراً، سحبها من شعرها بقوة ورفعها. أدارها لتستدير على يديها وركبتيها أمامه. سروالها كان قد نزعته هي بنفسها أثناء الامتصاص. مؤخرتها المغطاة بالفراء الداكن الكثيف كانت مرفوعة، والشق الوردي اللامع بين الفخذين يظهر واضحاً كلما حركت وركيها.

آدم أمسك بوركها بكلتا يديه، وباعد بينهما أكثر، ثم غرز وجهه بينهما. لسانه شق الفراء الرطب ولعقها من الأسفل إلى الأعلى بقوة. ليلى أطلقت أنيناً خشناً عميقاً، ودفعت مؤخرتها إلى الخلف في وجهه. راح يلعق ويمص بعنف، أنفه يغرق في الفراء المعطر برائحتها القوية، ولسانه يدخل ويخرج من فتحة مهبلها الضيقة الساخنة.

ـ أدخلني... بسرعة ـ قالت بصوت مكسور.

نهض على ركبتيه، وضع رأس قضيبه المنتصب على فتحة مهبلها، ودفع دفعة واحدة حتى الغرق الكامل. صرخت ليلى بصوت عالٍ هذه المرة، وجسدها ارتعش كله. فراؤهما احتك ببعضه بعنف مع كل ضربة. آدم أمسك بفرائها الكثيف على كتفيها كالزمام، وراح يندفع فيها بقوة متزايدة. صوت ارتطام الجسدين المغطين بالفراء كان رطباً وفاحشاً، يختلط بأنينها العميق وتنفسه الثقيل.

هي كانت تضغط عليه من الداخل بقوة عضلاتها المتكيفة، كأنها تريد أن تبتلعه كله. عندما وصل إلى الذروة، دفع إلى أقصى عمق وأفرغ نفسه داخلها بنبضات قوية متتالية. ليلى ارتجفت تحته ووصلت هي أيضاً، سوائلها تختلط بسائلها وتسيل على الفراء الداخلي لفخذيها.

ظلا متصلين لوقت طويل بعد ذلك، أنفاسهما العميقة البطيئة تملأ الكهف. ليلى التفت برأسها ونظرت إليه من فوق كتفها، عيناها ما زالتا غائمتين باللذة.

ـ أنا بحبك يا آدم. مش بس عشان القبيلة... بحبك أنا.

آدم لم يرد بالكلمات. فقط انحنى وعضّ رقبتها المغطاة بالفراء برفق، ثم بقوة أكبر، تاركاً أثر أسنانه فيها.

الفصل الإضافي الثاني

بعد الغروب

مرّت ثلاثة أيام على موت حنان، ويومان على إلغاء خطة المذبحة.

القبيلة كانت منقسمة وصامتة. يوسف ابتعد مع ستة آخرين إلى كهف أبعد. الباقون ظلوا، لكن التوتر كان واضحاً في كل نظرة.

في الليلة الثالثة، جاءت ليلى إلى مهجع آدم بعد أن نام الجميع. لم تطرق. دخلت وجلست على سريره مباشرة. كانت عارية تماماً تحت العباءة الرمادية القصيرة التي خلعتها فور دخولها. فراؤها بدا أكثر نعومة تحت الضوء الخافت، وثدياها الثقيلان يرتفعان وينخفضان مع تنفسها العميق.

ـ عايزة منك حاجة تانية الليلة ـ قالت بصوت خشن.

آدم كان مستلقياً. نظرتها كانت مختلفة عن الليلة الأولى: أكثر جوعاً، وأقل حناناً، وكأنها تريد أن تنسى أو تجعله ينسى بالقوة.

صعدت عليه، وباعدت فخذيها فوق وجهه. الفراء الكثيف على أسفل بطنها وبداية فخذيها غطى أنفه وفمه فوراً. رائحتها كانت أقوى هذه المرة، أكثر حدة وإثارة. راحت تفرك نفسها على فمه ولسانه بحركة دائرية بطيئة أولاً، ثم أسرع. آدم أمسك بوركها بقوة ورفع رأسه ليغرق لسانه أعمق داخلها. هي أنّت بصوت مكبوت وراحت تهتز عليه، سوائلها تسيل على ذقنه ورقبته وتختلط بالفراء.

عندما اقتربت من الذروة الأولى، رفعها بقوة وألقاها على ظهرها. فتح فخذيها على اتساعهما حتى ظهر الشق الوردي بالكامل محاطاً بالفراء الداكن المبلل. أدخل قضيبه دفعة واحدة حتى الاصطدام برحمها. ليلى صرخت هذه المرة دون أن تكتم، ويداها غرقتا في الفراء الكثيف على ظهره وكتفيه.

راح ينكحها بقوة وعمق، كل دفعة تخرج صوتاً رطباً فاحشاً من التقاء الجسدين المغطين بالشعر. هي كانت تلف ساقيها حوله وتشدّه إلى الداخل أكثر، أظافرها تحفر

في جلده تحت الفراء. بعد دقائق أخرج نفسه فجأة، وقلبها على بطنها، ورفع مؤخرتها بيد واحدة بينما الأخرى تمسك بقاعدة قضيبه. دفّه من الخلف هذه المرة أعنف. فراؤها على ردفيها كان يهتز مع كل صدفة، وفتحة مهبلها تخرج صوتاً مبللاً مقززاً ومثيراً في آن واحد.

ـ أقوى... اكسّرني ـ همست بصوت مبحوح.

نفّذ طلبها. أمسك بفرائها على كتفيها كالزمام وسحبها إلى الخلف مع كل دفعة حتى كان رأس قضيبه يضرب عنق رحمها بقوة. ليلى كانت تئن وتسبّ وتطلب المزيد بكلمات فاحشة لم يكن يسمعها منها من قبل. عندما شعرت أنه اقترب، ضغطت عليه بعضلاتها الداخلية بقوة تكاد تكون مؤلمة، وظلت تضغط حتى انفجر داخلها للمرة الثانية في تلك الليلة. ظلت تنتفض تحته طويلاً بعد ذلك، سوائلها وسائله يسيلان معاً على الفراء الداخلي لفخذيها وعلى الفراش.

بعد أن هدأ الجسدان، بقيت مستلقية فوقه، صدرها العريض على صدره، وفراؤهما ملتصق بالعرق والمني. أصابعها كانت تتحسس ببطء أثر العضّة التي تركها على رقبتها قبل أيام.

ـ مش هسيبك ليوسف ولا لحد ـ قالت بصوت هادئ هذه المرة. ـ ولا هسيبك للميتة كمان.

آدم وضع يده على رأسها ومرّر أصابعه بين شعرها وفرائها الخفيف على الرقبة. لم يعد قادراً على إنكار أنها صارت جزءاً من جسده الآن... بنفس القوة التي صارت بها ذكريات حنان جزءاً من فراغه الداخلي.

خارج المهجع، كانت رياح المريخ تعود من جديد، تحمل الغبار الأحمر وتضرب القبة الزجاجية بانتظام يشبه نبضاً بعيداً.

الفصل الإضافي

الحمل

مرت ستة أسابيع على موت حنان، وخمسة أسابيع على الليلة التي ألغى فيها آدم خطة المذبحة.

القبيلة كانت لا تزال منقسمة. يوسف ومن معه ابتعدوا إلى سلسلة كهوف أبعد شمالاً، ولم يعودوا إلا نادراً لأخذ الطعام أو الأدوات. الباقون ظلوا قرب القباب، في حالة هدنة هشة مع البعثة الأرضية. لا أحد يثق بأحد تماماً، لكن الدم لم يُسفك.

ليلى كانت أول من لاحظ التغيير في جسدها.

الفراء على بطنها السفلي صار أكثر كثافة ونعومة في منطقة ضيقة فوق الرحم. ثدياها ازدادا ثقلاً وحساسية، حتى أن لمس الفراء الخفيف الذي يغطيهما صار يسبب لها ارتعاشة غير إرادية. ثم توقفت دورتها تماماً. في البداية ظنت أنه بسبب التوتر أو نقص التغذية بعد الانقسام. لكن الغثيان الصباحي الخفيف، والرائحة القوية التي صارت تشمها في كل شيء، لم تكن تكذب.

في ليلة باردة هادئة، دخلت مهجع آدم بعد أن نام الجميع. كانت ترتدي العباءة الرمادية فقط. جلست على حافة سريره، ووضعت يده على بطنها تحت الفراء.

ـ تحس حاجة؟

آدم كان نصف نائم. أصابعه غاصت بين الشعر الكثيف الدافئ، ثم توقفت عندما أحسّ بالصلابة الخفيفة المختلفة تحت الجلد.

نظر إليها في الضوء الخافت.

ـ ليلى…

هي لم تبتسم. عيناها كانت جادّتين أكثر من أي وقت مضى.

ـ أنا حامل. منك. من الليلة اللي في الكهف… أو اللي بعدها. مش متأكدة أيهم، بس أكيد منك.

الصمت امتد طويلاً. خارج المهجع كانت رياح خفيفة تحرك الغبار على الزجاج. آدم أبقى يده على بطنها، يشعر بالدفء الغريب تحت الفراء، ويتذكر في اللحظة نفسها يد حنان الباردة وهي ترخي بين أصابعه قبل أن تموت.

ـ متأكدة؟

ـ متأكدة. روحت للطبيبة الأرضية امبارح بالسر. هي اللي عملت الفحص. قالت إن الجنين... أو الجنينين... بصحة كويسة. وإنهم هيتولدوا بصفاتنا أكتر من صفاتهم.

آدم سحب يده ببطء وجلس. صدره العريض ارتفع بهدوء عميق.

ـ توأمين؟

ـ ممكن. قالت إن في احتمال كبير.

ليلى اقتربت أكثر، حتى صار فراؤها يلامس فراؤه من الجانب. صوتها انخفض:

ـ أنا مش نادمة. بس خايفة. خايفة من يوسف لو عرف. وخايفة من اللي هيحصل للقبيلة. وخايفة منك إنت... لو فضلت شايف فيها هي أكتر من اللي جوايا دلوقتي.

آدم وضع راحته من جديد على بطنها، هذه المرة أوسع، تغطي المنطقة كلها تقريباً. تحت الفراء كان هناك شيء ينبض بحياة جديدة، حياة لم يطلبها أحد، لكنها صارت موجودة.

ـ مش هقدر أنسى حنان ـ قال بصوت منخفض. ـ بس كمان مش هقدر أتجاهل ده. إنتِ حاملة ابني... أو أولادي. وده بيغيّر كل حاجة.

في اليوم التالي، أخبر آدم من بقي من القبيلة.

الاجتماع كان داخل أحد الكهوف الصغيرة القريبة من القباب، لا في الكهف الكبير القديم. الوجوه كانت متوترة. عندما نطق بكلمة «حامل»، ساد صمت يشبه الصمت الذي سبق قرار المذبحة.

ليلى وقفت بجانبه، رأسها مرفوع، يدها على بطنها تحت العباءة.

أحد الفتيان سأل مباشرة:

ـ وده معناه إيه بالنسبة لنا؟

آدم أجاب بهدوء، لكنه كان حاسماً:

ـ معناه إن في حياة جديدة بتتخلق هنا. حياة منّا. ولو قتلنا أهل الأرض دلوقتي... هتكون دي أول حاجة بيشوفها الولاد لما يتفتحوا عينيهم: جثث ودماء. أنا مش هسمح بكده.

ليلى أضافت، وصوتها أكثر خشونة هذه المرة:

ـ التوأمين دول مش بس بتاعي وبتاع آدم. دول أول مواليد بعد ما قررنا نوقف القتل. لو رجعنا للدم... يبقى إحنا كذبنا على نفسنا.

من الخلف جاء صوت أحد الشباب الذين كانوا مترددين بين يوسف وآدم:

ـ ويوسف؟ لو عرف هيجنن.

آدم نظر إلى المدخل المظلم للكهف كأنه يرى يوسف هناك.

ـ يوسف اختار طريقه. إحنا هنختار طريقنا. واللي عايز يمشي مع الحياة الجديدة... يفضل. واللي عايز يفضل في الكراهية... الباب مفتوح زي ما كان.

بعد الاجتماع، بقيت ليلى مع آدم وحدهما حتى الفجر. جلسا على صخرة خارج الكهف، يراقبان الأفق المريخي وهو يتحول من الأسود إلى البنفسجي الباهت. يد آدم كانت على بطنها من جديد، أصابعه تتحرك ببطء بين الفراء الكثيف.

ـ لو كانوا توأمين فعلاً ـ همست ليلى ـ هسمي واحدة منهم باسمها؟

آدم لم يرد فوراً. نظر إلى السماء حيث كانت الأرض لا تزال نقطة زرقاء باهتة بعيدة.

ـ لأ ـ قال أخيراً. ـ هتسمّيهم بأسماء جديدة. أسماء مريخية. لأنهم مش هيكونوا تبع الماضي... لا ماضيها ولا ماضي الكراهية.

ليلى أمالت رأسها على كتفه العريض. الفراء على خده لامس فراؤها. تحت يد آدم كان الجنين (أو الجنينان) ينمو في صمت، غير مدرك بعد أنه قد صار ـ دون أن يطلب أحد ـ أول علامة حقيقية على أن القتل بدأ يخرج من قاموس القبيلة.

وأن شيئاً آخر، أخطر وأجمل، بدأ يحل محله.

الفصل الإضافي

الولادة والتوائم

الولادة جاءت مبكرة بأسبوعين حسب حسابات الطبيبة الأرضية.

كانت ليلة هادئة على غير العادة. لا عاصفة، لا رياح قوية، فقط سماء صافية مليئة بالنجوم الحادة والقمر الأرضي الصغير الذي يطل كشاهد بعيد. ليلى كانت قد انتقلت منذ أيام إلى إحدى القباب الطبية الصغيرة بناءً على طلب آدم، بعد أن أصبحت الحركة صعبة والفراء على بطنها الممتلئ قد تباعد قليلاً ليظهر الجلد المشدود تحته.

آدم لم يفارقها.

عندما بدأت التقلصات الحقيقية، كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل. ليلى كانت راقدة على السرير الطبي المنخفض، ساقاها مفتوحتان، وفراؤها الداكن مبلل بالعرق في مناطق الصدر والبطن والفخذين. كل تقلصة كانت تجعل صدرها العريض يرتفع بعنف، وأنفاسها العميقة تتحول إلى أنين خشن مكتوم.

الطبيبة الأرضية ـ اسمها داليا ـ كانت ترتدي قناعاً خفيفاً فقط، لأن الهواء داخل القبة كان مضبوطاً. بجانبها وقفت إحدى فتيات القبيلة التي تعلمت أساسيات التوليد خلال الأشهر الماضية. اليدان مختلفتان تماماً: يد ناعمة بيضاء، ويد مغطاة بفراء كثيف داكن، تعملان معاً فوق جسد ليلى.

آدم كان يمسك بيد ليلى. أصابعه غائصة في فراؤها المبلل على ساعدها. هي كانت تضغط بقوة تكاد تكسر عظامه البشرية العادية لو كان مكانه شخص آخر.

ـ مش قادرة... كمان واحدة ـ قالت بين أسنانها.

ـ تقدري ـ رد آدم بصوته الهادئ الثقيل. ـ أنا هنا.

الدفعة الأولى أخرجت رأس التوأم الأول.

كان مغطى بطبقة رقيقة من الفراء الداكن الرطب، أكثر مما يُولد به أي طفل أرضي، وأقل كثافة مما سيكون عليه لاحقاً. الطبيبة استقبلته بيديها، وقطع الحبل بسرعة. الصوت الذي صدر عنه كان خشناً وعميقاً أكثر من بكاء الأطفال الأرضيين... صوت مريخي صغير.

ـ ولد ـ قالت داليا بصوت متهدج من التعب والدهشة.

بعد دقائق قليلة جاءت التوأم الثانية.

بنت. فراؤها كان أنعم قليلاً وأفتح لوناً عند الأطراف، وصوتها عندما بكت كان أعلى وأكثر حدة. الطبيبة لفّتهما في قماش ناعم نظيف، ثم وضعتهما على صدر ليلى العاري حيث تباعد الفراء. الجلد المشدود والشعر الداكن احتضنا الجسدين الصغيرين. ليلى أنزلت رأسها عليهما، وراحت تشمّهما بعمق، أنفها يغرق في رائحتهما الجديدة المختلطة برائحتها هي.

آدم انحنى فوق الثلاثة. يده الكبيرة غطت ظهر الولدين معاً تقريباً. الفراء على أصابعه لامس الفراء الرقيق عليهما. للحظة طويلة لم يتكلم أحد. فقط أصوات التنفس المختلفة: تنفس ليلى العميق البطيء، وتنفس الطبيبة الأسرع، وتنفس التوأمين الصغير السريع، وتنفس آدم الذي كان يحاول أن يرتب شيئاً انكسر داخله منذ موت حنان... وبدأ يلتئم الآن بطريقة مختلفة.

في الصباح، عندما انتشر الخبر، جاء من بقي من القبيلة أولاً.

وقفوا خارج القبة الطبية ينظرون من الزجاج. بعضهم ابتسم لأول مرة منذ شهور. بعضهم بكى دون صوت. ليلى رفعت أحد التوأمين ليراه الجميع، ثم الآخر. الفراء الرقيق عليهما كان يلمع تحت ضوء الشمس المريخية البرتقالي.

بعد ساعات جاء مراد شوكت.

وقف على مسافة، وجهه شاحب ومتعَب، وعيناه الحزينتان منذ موت حنان تنظران إلى الطفلين. آدم خرج إليه. الاثنان تواجها لحظة طويلة دون كلام. ثم مدّ مراد يده. آدم نظر إليها ـ اليد الناعمة البيضاء التي لا فراء عليها ـ ثم مدّ يده هو. الفراء لامس الجلد الأملس. المصافحة كانت قصيرة وخشنة... لكنها حدثت.

في المساء نفسه، أُرسلت رسالة إلى الكهوف الشمالية حيث يقيم يوسف وجماعته. الرسالة كانت بسيطة، مكتوبة بيد آدم:

«وُلد توأمان. ولد وبنت. من دمنا. أول مواليد بعد قرار إيقاف القتل.

إن أردتم رؤيتهما... الباب مفتوح.

إن أردتم البقاء في الكراهية... لن نلاحقكم.

لكن القبيلة هنا اختارت الحياة.»

لم يأتِ الرد في ذلك اليوم.

داخل القبة الطبية، كانت ليلى ترضع التوأمين واحداً بعد الآخر. الفراء على ثدييها كان مبللاً بالحليب قليلاً، والطفلان يرضعان بجوع قوي. آدم جلس على الأرض بجانب السرير، ظهره إلى الجدار الزجاجي، ينظر إليهما.

خارج القبة كان الغبار يرقص في دوامات صغيرة تحت الريح الخفيفة.

وداخلها كانت حياة جديدة تتنفس هواءً مشتركاً... هواءً لم يعد مخصصاً لطرف دون الآخر.

ولأول مرة منذ أن وعى آدم على هذا الكوكب، أحسّ أن كلمة «سلام» لم تعد مجرد قرار يُفرض بالقوة أو بالخوف.

صارت لحماً ودماً وفراءً رقيقاً... ينام على صدر أمه.

الفصل الإضافي

الاندماج الجنسي

بعد ولادة التوأمين بثلاثة أسابيع، بدأت القباب تُفتح بشكل مختلف.

لم يعد المريخيون يُعاملون كحيوانات تجارب، ولا الأرضيون كأعداء ضعفاء. الهشة التي قامت بعد إلغاء المذبحة صارت تتحول تدريجياً إلى فضول... ثم إلى رغبة.

الليلة الأولى التي كُسر فيها الحاجز الجسدي تماماً حدثت داخل القبة السكنية الشرقية، حيث الهواء كثيف ودافئ ورطب نسبياً كجو الأرض.

سامي وندى

سامي كان من الشباب الذين وقفوا مع آدم. صدره عريض، وفراؤه داكن كثيف يغطي ظهره وذراعيه وبطنه حتى أسفل السرة، ويمتد كثيفاً على فخذيه. ندى مهندسة شابة من البعثة الأرضية، بشرة بيضاء ناعمة، شعر أسود طويل، وجسد نحيل مقارنةً به.

دخلت عليه في غرفته بعد منتصف الليل. كانت ترتدي قميصاً رقيقاً فقط. عندما أغلقت الباب، نظر إليها سامي من رأسها إلى قدميها دون أن يتحرك.

ـ خايفة من الفراء؟ سأل بصوته الخشن العميق.

ندى اقتربت بدلاً من الإجابة. مدت يدها ولمست صدره. أصابعها غاصت بين الشعر الكثيف الدافئ، وتحركت ببطء نحو الأسفل. عندما وصلت إلى عضوه الذي كان قد بدأ ينتفخ تحت السروال القصير، أخرجت شهقة خافتة.

ـ مش خايفة... فضولية.

سامي رفعها فجأة من خصرها كأنها لا تزن شيئاً، وأجلسها على حافة الطاولة المعدنية. سحب قميصها من فوق رأسها دفعة واحدة. ثدياها الصغيران الأبيضان بديا عاريين تماماً أمام صدره المغطى بالفراء. انحنى وأمسك أحدهما بفمه، يعضّ الحلمة بلطف أولاً ثم بقوة أكبر بينما يده الأخرى تفتح فخذيها.

ندى كانت مبللة بالفعل. أدخل إصبعين سميكين داخلها دفعة واحدة، وراح يحركهما ببطء قاسٍ. هي تمسكت بفراؤه على كتفيه ورفعت وركيها. بعد دقائق سحب أصابعه، وأخرج قضيبه الثقيل الطويل، ومرّره على شقها مرات عدة حتى غطاه بسائلها. ثم دفعه داخلها ببطء متعمد حتى غرق كاملاً.

صرخت ندى. الفرق كان هائلاً: سمكه، طوله، والحرارة الأعلى لجسده المريخي. سامي أمسك بفخذيها الناعمين وبدأ ينكحها بقوة متزايدة. كل دفعة كانت تجعل الطاولة تهتز، وثدييها يرتجفان، وفراؤه يحتك بجلدها الأملس من البطن إلى الصدر. رائحة الفراء المختلطة بعرقها وبسائلها ملأت الغرفة.

عندما قلبها على بطنها وسحبها إلى حافة الطاولة ودخلها من الخلف، صارت تطلب منه أن لا يتوقف بكلمات فاحشة لم تكن تظن أنها ستقولها يوماً. سامي أمسك بشعرها الحريري بيد وبوركها الناعم باليد الأخرى، وراح يضرب داخلها بعمق حتى أفرغ نفسه دفعة قوية ساخنة. ظلت تنقبض عليه طويلاً بعد ذلك، سائله يسيل منها على فخذيها البيضاوين ويختلط بالفراء الداكن عند قاعدة قضيبه.

ليلى وأحد المهندسين الأرضيين (بعد أشهر)

في ليلة أخرى، داخل القبة الطبية التي صارت تُستخدم أحياناً للخصوصية، كانت ليلى هي من تبادر.

التوأمان نائمان في الغرفة المجاورة تحت رعاية فتاة من القبيلة. ليلى كانت قد استعادت جسدها تقريباً، لكن ثدييها صارا أثقل، والفراء على بطنها السفلي أكثر نعومة. المهندس الأرضي ـ كريم ـ كان قد بدأ يقضي وقتاً أطول معها بحجة متابعة صحة التوأمين.

في تلك الليلة لم يكن هناك مبرر طبي.

ليلى خلعت عنه قميصه أولاً، ثم سرواله. جسدها المغطى بالفراء ضغطت به على جسده الأملس من الصدر إلى الفخذين. الفرق كان واضحاً ومثيراً: نعومته مقابل خشونتها الدافئة، برودة جلده النسبية مقابل حرارتها الأعلى. أمسكت بقضيه بيدها المغطاة بالفراء وراحت تحركه ببطء قاسٍ حتى صار صلباً تماماً ولامعاً.

ثم دفعته ليستلقي على ظهره، وصعدت فوقه. فخذها المكسوان بالفراء باعدتهما على جانبي وركيه، وأمسكت رأسه ووضعته على فتحة مهبلها. نزلت ببطء حتى ابتلعته كاملاً. أنّت بصوت خشن عميق، وبدأت تتحرك فوقه بحركة دائرية أولاً ثم صعوداً وهبوطاً عنيفين. الفراء على باطن فخذيها وعلى أسفل بطنها كان يحتك بجلده مع كل حركة، تاركاً احمراراً خفيفاً وإثارة واضحة على بشرته.

كريم رفع يديه وأمسك بثدييها المغطين بالفراء، يعصرهما ويشدّ الحلمات من تحت الشعر. ليلى زادت السرعة، صوت ارتطام جسديهما الرطب يملأ القبة. عندما اقتربت من الذروة، انحنت فوقه حتى غطى فراؤها صدره ووجهه تقريباً، وعضّت كتفه الأملس بينما كانت تنقبض حوله بقوة عضلاتها الداخلية المتكيفة. هو وصل معها، يدفّع إلى الأعلى ويصب داخلها وهو يئن باسمها.

بعد أن هدآ، بقيت مستلقية عليه. فراؤها يلتصق بجلده بالعرق والمني. أصابعه كانت تتجول ببطء في الفراء الكثيف على ظهرها.

ـ مختلف تماماً ـ همس.

ـ أه ـ أجابت ليلى بصوتها الخشن الهادئ. ـ وده اللي بيخلّيه أحلى.

خارج القباب، كانت سماء المريخ تميل إلى السواد من جديد.

وداخلها، كانت أجساد مختلفة تتنفس الهواء نفسه، وتتعرق فوق بعضها، وتتعلم ببطء أن الفراء والجلد الأملس يمكن أن يلتصقا... دون أن يقتل أحدهما الآخر.